موسوعة الفتوحات الإسلامية

من كتاب الكامل في التاريخ

لابن الأثير

مقتطفات من أحاديث

الإمام الشعراوى

إعداد

أ.د/ عبد القادر هيثم الخطيب



موسوعة الفتوحات الإسلامية

من كتاب الكامل فى التاريخ

لابن الأثير

مقتطفات من أحاديث

الإمام محمد متولى الشعراوى

إعداد

أ.د / عبدالقادر هيثم الخطيب

أستاذ محاضر بالجامعات العربية

دار الكتاب الحديث

1425 هـ / 2005 م



القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هـاتف رقـم : 2752990 (202 00) فـاكس رقـم : 2752992 (202 00) بريـد إلكـتروني : dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفـاه هـاتف رقـم 2460634 (965 00) فـاكس رقـم : 2460628 (965 00) بريـد إلكـتروني : ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dkhadith@hotmail.com

رقم الإيداع	2004 / 17496
I.S.B.N.	977-350-098-7

مقدمة

منذ السنة الثانية لهجرة النبـى محمد من مكة إلى يثرب (أى المدينة المنوَّرة)، بدأ تحرُّك المسلمين عسكريًا، وأخذ هذا التحـرك العسكرى ضد الكفار، ضد قريش أى سكان مكة ومن تحالف مـعها، أخذ طابع الغـزو. . وهو ما كان معـروفًا لدى قبائل الجزيرة العربية فى ذلك الوقت.

وسنذكر أهم هذه الغزوات والحـروب، وسنتكلَّم عن أهمها، وقد اسـتمرت هذه الحروب خلال تسع سنوات.

1 ـ غزوات كانت فى السنة الثانية لهجرة الرسول الكريم:

- غزوة ودان (ودان: قرية بين المدينة ومكة)
- غزوة بواط
- غزوة العشيرة
- عزوة بدر الأولى
- عزوة بدر الكبرى
- عزوة بنى قينقاع
- غزوة السويق

2 ـ غزوات كانت فى السنة الثالثة من الهجرة:

- غزوة غطفان
- غزوة بحران (بحران: اسم مكان قرب المدينة)
- غزوة أحد
- غزوة حمراء الأسد

3 ـ غزوات كانت فى السنة الرابعة من الهجرة:

ـ غزوة بنى النضير

ـ غزوة ذات الرقاع

ـ غزوة بدر الأخيرة

4 ـ غزوات كانت فى السنة الخامسة من الهجرة:

ـ غزوة دومة الجندل (دومة الجندل قرية من دمشق)

ـ غزوة بنى المصطلق

ـ غزوة الخندق

ـ غزوة بنى قريظة

5 ـ غزوات كانت فى السنة السادسة من الهجرة:

ـ غزوة بنى لحيان

ـ غزوة الغابة

ـ غزوة الحديبية

6 ـ غزوات كانت فى السنة السابعة بعد الهجرة:

ـ غزوة خيبر

7 ـ غزوات كانت فى السنة الثامنة بعد الهجرة:

ـ غزوة مؤتة

ـ غزوة فتح مكة

ـ غزوة حنين

ـ غزوة الطائف

8 ـ غزوات كانت فى السنة التاسعة بعد الهجرة:

ـ غزوة تبوك

سنُحْصر الكلام فى هذا الكتاب حول سبع غزوات أو حروب هى:

1 ـ غزوة بدر الكبرى

2 ـ غزوة أحد

3 ـ غزوة الخندق

4 ـ الحديبية

5 ـ خيبر

6 ـ فتح مكة

7 ـ حنين

العرب قبل الإسلام

عرب الجاهلية:

عرب ما قبل الإسلام. . من هم؟ وأين سكنوا؟

لم تكن الجزيرة العربية وحدها موطن العرب! إنّما كانت أهم موطن لهم، وما يميِّزها عن غيرها من الأماكن التى سكنها العرب قديمًا أنّها كانت بلادًا واسعة فى صحارى مقفرة، قليلة الآبار والعيون.

فى الجزيرة العربية يقلُّ الخصب، ويتجمّع السكان وأغلبهم من البدو الرُحَّل حيث توجد الآبار والعيون أو فى الواحات.

إنَّ نظرةً إلى خارطة الجزيرة العربية نقرأ ما يلى:

صحراء واسعة مقفرة قليلة الآبار والعيون واحدة فى الشمال وتسمًّى صحراء النفوذ، وصحراء ثانية فى الجنوب وتسمًّى صحراء الربع الخالى.

فى جنوب الجزيزة العربية توجد بلاد اليمن وهى بلاد خضراء تكثر فيها المرتفعات الجبلية بلاد خصبة وهى مقرُّ ملوك اليمن (ملوك سبأ وحمير).

فى الشمال تمتد بلاد الحجاز وهى ذات تربة رملية قليلة المياه وفقيرة الخصوبة، وأغلب سكان الحجاز بدوٌ رُحَّل،وأهمية الحجاز هو فى كونه يربط بلاد اليمن فى الجنوب ببلاد الشام فى الشمال، وقبل الإسلام رحل اليهود إلى بلاد الحجاز وأقاموا فى خيبر وفى يثرب ـ (أى المدينة المنورة وفى شمالها جبل يسمى جبل أحد، يكثر فى يثرب النخيل) ـ وأشهر مدن الحجاز كانت مدينة مكة وفيها بئر ماء يسمًّى بئر زمزم.

إلى الشرق من اليمن نجد بلاد حضرموت وهى كثيرة الجبال وتكثر فيها المدن المندثرة.

وظفار التى اشتهرت بالطيب والبخور. وإلى الشرق من ظفار تمتد منطقة عُمان حيث اشتهر سكانها بالملاحة. وإذا ما اتجهنا شمالاً وبمحاذاة مياه الخليج العربى صعودًا حتى العراق فنمرُّ بقطر والبحرين.

أمّا شمال الجزيرة العربية، بين الحجا غربًا والبحرين شرقًا تمتد مرتفعات نجد التى تعتبر أصح بلاد العرب مناخًا وأفضلها هواءً..

بين نجد واليمن تمتد منطقة اليمامة، حيث قيل بأنّها بلاد طَسَمْ وجديس وتشتهر بهبوب رياح شرقية تسمى «الصَّبا».

فى هذه البلاد، فى جزيرة العرب، سكن الشعب العربى، فى الحجاز واليمن وحضرموت وظفار وعُمان والبحرين وقطر ونجد واليمامة...

ليس هذا فقط بل سكن العرب فى أماكن ومناطق أخرى خارج الجزيرة العربية، أى فى الشمال، وكانوا أكثر حضارة من إخوانهم فى داخل الجزيرة الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر بكل إبلهم وعيالهم طلبًا للعشب، إنّ هذه الحياة البدوية هى التى كانت سائدة فى شبه الجزيرة العربية، كما كان السكان ينقسمون إلى قبائل، وكانت هذه القبائل فى نزاع دائم مع بعضها البعض، وكثيراً ما كانت تتحالف قبيلتان أو أكثر ضد أخرى.

كان عرب الجنوب القاطنين فى اليمن أكثر حضارةً من عرب الوسط، ويعود السبب إلى استقرارهم فى مدن وقرى بعكس عرب الشمال الذين يغلب عليهم طابع البداوة وعدم الاستقرار.

إنّ أشهر القبائل العربية التى سكنت الجزيرة العربية هى:

1 ـ قبائل كهلان ومنها القبائل التالية: طيء، همدان، مَذْحج، بنو الحارث، بجيلة، عاملة، جذام(سكنت جذام بادية الشام)، لخم (أسَّست ملكًا على نهر الفرات فى الحيرة)، كندة (فى حضرموت)، بنى أسد(فى اليمامة)، الأزد (فى عُمان)، الغساسنة(الذين أسَّسوا دولة لهم شرقى بلاد الشام)، خزاعة (كانت فى مكة قبل ترؤس قريش)، الأوس والخزرج(فى يثرب).

2 ـ قبائل حِمْير: ومنها القبائل التالية: قضاعة(سكنت الحجاز)، تَنُّوخ (سكنوا شمال بلاد الشام) كلب(سكنت بادية الشام)، جُهينة وعُذْرَة(سكنتا الحجاز، وقد عرف عن بنى عذرة طهارة عشقهم ورقّة مشاعرهم وعواطفهم).

3 ـ قبائل ربيعة ومنها القبائل التالية: بنو أسد (سكنوا شمال وادى الرمَّة)، بنى وائل، بنى تغلب، بنى بكر(حيث وقعت بينهما حروب طويلة امتدَّت سنوات كثيرة).

4 ـ قبائل مُضر ومنها: قيس عيلان، هوازن، سُلَم (سكنوا غربى نجد)، غطفان، عبس وذبيان(وقد كانت بينهما حرب طويلة سمِّيت بحرب داحس الغبراء) بنو تميم (سكنوا قرب البصرة)، هُذَيْل(سكنت قرب مكة)، كنانة(سكنت جنوبى الحجاز ومنها قريش).

هذه هى أشهر القبائل العربية التى سكنت جزيرة العرب والمناطق القريبة منها، وكان سكَّان كل قبيلة يحملون فى صدورهم التعصُّب لقبيلتهم، وأخذ شعراء كل قبيلة يتهاجون ويتفاخرون طبقًا لهذه العقيدة، عقيدة التعصب للقبيلة، هكذا كان وضع العرب قبل مجىء الإسلام.

ممَّا مرَّ، عرفنا أن العرب كانوا بدواً وحضراً، والأغلبية منهم كانوا بدواً.

أولا: البدو

اعتمد البدو فى معيشتهم على ما تعطيه الماشية من لحوم وألبان وصوف، منها يأكلون ويلبسون ويصنعون خيامهم. ويطعمون هذه الماشية ممَّا تعطيه الطبيعة من النبات والأعشاب، وكانوا يُغيرون على بعضهم ويغنمون من وراء ذلك، يُغيرون على قبيلة أخرى حيث يأخذون جمالهم ومواشيهم ويسبون نساءهم وأولادهم، ثم تعاود القبيلة المغلوبة على أمرها إلى الانتقام عندما تجد فى نفسها القوَّة، أما القبيلة الضعيفة فقد كانت تلجأ إلى قبيلة أقوى تحتمى بها. . وكان أفراد كل قبيلة متضامنين متكاتفين، ينصرون أخاهم ظالمًا كان أو مظلومًا، إذا جنى أحدهم جناية حملتها القبيلة كلُّها، وإذا غنم غنيمة فهى للقبيلة كلها. فالانتماء كان للقبيلة، والوطن هو القبيلة. هذا الارتباط بالقبيلة وهذا الشعور هو ما نسمِّيه بالعصبية. وفيها نزلت الآية الكريمة على رسول الله محمد (ﷺ):

﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [التوبة].

كان المثل الأعلى للبدوى ينحصر فى:

ـ المروءة: وتعتمد على الشجاعة.

ـ الكرم: فى ميادين القتال ومساعدة الفقير المحتاج.

ثانيًا: الحضر

أما الحضر من عرب الجزيرة فقد كانوا أرقى من البدو، وسكنوا المدن، عملوا فى التجارة وفى الزراعة وكانوا منظمين فى ممالك، ومنها:

الأنباط: وهو من العرب وتدلُّ على ذلك الأسماء العربية الواردة فى نقوشهم، وكان للأنباط حضارة زاهرة فى القرن الثالث والقرن الثانى ق.م. والقرن الأول بعد الميلاد..

قضى على دولة الأنباط الرومان عام106م. وكانت عاصمتهم مدينة منحوتة بالصخر، ولذلك سمَّاها الإغريق باسم الصخرة وقد قيل بأن البتراء هى المدينة التى أقام فيها أهل الكهف.

وقد حرَّف العرب الاسم وسمّوها بالرقيم. ومن الأسماء التى كان يستعملها الأنباط هى:

حارثة، مالك، جذيمة، كليب، وائل، مغيرة، قصى، عدى، عائذ، عمرو، عميرة، يعمر، معن، وهب الله، على، حبيب، سعيد، جميلة، هاجر، شقيلة، هانى، جدلة، عبد الملك، سعد الله، حميد، حوشب،... هذه كلها أسماء عربية..

وقد شارك الأنباط بقية العرب بعباداتهم، فقد عبدوا الصنم (ذى الشرى) وعبدوه باسم (ذو شرى) وهو إله الشمس، وهو الإله الأول عندهم وكانوا يمثّلونه على شكل عمود من الصخر. وعبدوا كذلك (اللات) إلهة القمر، كما عبدوا الإله (شيع القوم).

تدمر: تعود تدمر بازدهارها إلى القرن الأول للميلاد، وكان لموقعها التجارى

الفضل الأول فى ازدهار حضارتها وتعاظم نموّها، فهى تقع عند تقاطع الطرق الصحراوية التى تربطها بالبتراء فى الجنوب، وبموانئ الساحل السورى فى الغرب وبمدن الخليج العربى فى الشرق وإنطاكية فى الشمال.

أصبحت تدمر بفضل موقعها هذا تنافس مدينة الإسكندرية، ومن هذه التجارة التى تمر فيها جنت تدمر مكاسب كثيرة، فأقيمت فيها الشوارع الفخمة والمعابد والهياكل الضخمة وأقواس النصر والقصور، وكانت الحكومة فى تدمر ترسل الحرّاس لحماية التجار والقوافل.

عبد التدمريون آلهة عربية وأهمُّها الإله (بل) و(إلت) و(أشتر) و(سعد) و(بعل شمين) أى بعل السماء.

الغساسنة: كانت ديار قبيلة غسَّان تمتد على منطقة حوران والبلقاء بين الجولان ونهر اليرموك، وكانت الجولان مركز إمارتهم وكانت عاصمتهم مدينة الجابية، كانت للغساسنة حضارة مزدهرة، وحياة راقية، وذلك بسبب اتصالهم بالمدنيَّة اليونانية والرومانية كما قصدهم الشعراء العرب مثل النابغة الذبيانى والأعشى.

واشتهر من أمرائهم (الحارث بن جَبلة) حيث عيَّنه الإمبراطور الرومانى جوستنيان عام 529 م. أميرًا على كل قبائل العرب، وكان يُدين الحارث بن جبلة بالدين المسيحى، كما قضى معظم أيَّام حكمه فى صراع مع ملك الحيرة المنذر الثالث.

إن آخر الملوك الغساسنة كان (جبلة بن الأيهم) الذى أسلم عندما دخل العرب المسلمون بلاد الشام، أقام الغساسنة القصور لسكانهم والأبراج للحراسة وللمراقبة.

الحيرة: مدينة قديمة، يقال بأنَّها من بناء نبوخذ نصر الكلدانى، خَرُبت بعد وفاته وبقيت كذلك خرابًا حتى نزلتها قبيلة تنوخ، وتقع الحيرة فى منطقة النجف جنوبى العراق، امتازت برقَّة هوائها وعذوبة مائها، سكن الحيرة قديمًا وقبل ظهور الإسلام كل من قبائل تنوخ وتميم وأزد ولخم.

أُسِّست إمارة الحيرة بشكل منظَّم فى عهد الملك الفارسى سابور الأول حوالى العام 240 م. أسَّسها اللخميون وقدمت الطاعة للفرس ضمن استقلال ذاتى.

كانت أرض الحيرة خصبة ويعيش سكانها فى بحبوحة ورخاء وقاموا بدور صلة الوصل بين الفرس وبين عرب الجزيرة. وكان من أشهر ملوكها المنذر الثالث. وبقيت الحيرة على ولائها للفرس حتى العام 633 م. حين افتتحها خالد بن الوليد. وكان أمراء الحيرة مقصداً لشعراء عرب الجزيرة الوافدين إليهم مادحين.

كان العرب على اتصال بمن حولهم من شعوب وأمم (الروم والفرس) عن طريق التجارة حيث نقلوا غلات بلادهم إلى الشام ومصر وفارس، كما نقلوا إنتاج الشعوب الأخرى إلى بلادهم، وكانوا يخرجون بتجارتهم فى قوافل تذهب فى أوقات معينة سالكة طريقًا محدداً..

وقد أفادت هذه القوافل التجارية العرب كثيراً. وفتحت أمامهم باب الرزق، وكانوا يحمون قوافلهم، كما كان أشهر تجار القوافل هذه هم عرب الحجاز وذلك منذ القرن 6 ق.م. حيث كانوا يشترون السلع من اليمن والحبشة ويبيعونها فى الشام وفى مصر وفى فارس.

كانت مكة القاعدة التجارية لهذه القوافل وقد وصل أهلها إلى درجة كبيرة فى ميدان التجارة حيث كان الروم يعتمدون كثيراً على هذه التجارة فيما يشترونه من طيوب وأفاويه. وأشهر من سكن مكة من العرب هى قبيلة قريش.

يُقال بأنَّ قريشًا سمِّيت كذلك لأنَّ أبناءها عملوا بالتجارة وقد قيل بأن فلان... (يتقرش المال) أى يجمعه. وكان تجَّار قريش يقومون برحلتين تجاريتين:

1 ـ رحلة فى فصل الشتاء تذهب إلى بلاد اليمن جنوب الجزيرة العربية.

2 ـ رحلة فى فصل الصيف وتذهب إلى بلاد الشام. وكان يصل عدد الإبل فى كل قافلة أحيانًا (أى عدد الجمال) إى 1500 جمل، وكان لكلٍّ قافلة حرَّاس يحمونها تكشف معالم الطريق أمامها..

كان ملوك الحيـرة يحمون القوافل التى تذهب إلى بلاد فـارس لقاء مبلغ من المال يقبضونه من ملوك الفرس.

إضافة إلى الفائدة التجارية التى جناها العرب من أعمالهم التجارية هذه فقد استفـادوا من مدنيَّة الروم والفرس ومن حضـارتهم، وكانوا يعرفون بطبيـعة الحال لغتهم أى لغة من يتعاملون معهم أى لغة الفرس والروم.

عُـرف عن الإنسان العـربى، سـاكن الصحـراء بأنه عـصبى المزاج، سـريع الغضب، يثُار لأتفـه الأسباب خاصة إذا جُرحت كـرامته أو انتهكت حرمة قـبيلته يلجأ عندهـا إلى سيفـه يحكِّمه فى حلٍّ مشكلتـه، وهذه العادات والطبـائع كادت تذهب بالقبائل، وتفنيهم، وصارت الحرب لديهم نظامًا ودستوراً اعتادوا عليها. .

ليس ذلك بمستغـرب، خاصة إذا علمنا أن هذا الإنسان العـربى، سكن بقعة صحراوية تلفحها الشمس وتقلُّ فيها المياه ويجفُّ فى سمائها الهواء، صحراء قليلة النبات ونادرة المزروعـات إلا ما نبت مبـعثراً هنا وهناك، مـقاومة حـرارة الشمس اللافحة والجو الجاف. وما يُقال عن نبات الجـزيرة العربية يصح قوله على حيوانها وعلى إنسانها، فهو نحيل الجسم، ولا يستطيع تحمُّل قساوة هذا المناخ سوى البعير (الجمل).

إن تأثير هذه الصحراء ترك فى نفوس سكانها أثراً واضحًا، فلا أبنية ضخمة ولا مزروعات واسعة ولا أشـجار باسقة، إنَّ إنسان هذه البيئة الصـحراوية القاسية يقابل الطبـيعة وجـهًا لوجه لا يحـجبها عـن عينيه شيء، فـلا ظل للشمس على الأرض، والنجوم والقمر تبدوا واضحة فى كبد السماء يراها الإنسان بوضوح.

أمام هذه الطبـيعة القوية، القاسـية، الجميلة بدأ الإنســان يتطلَّع إلى رحمن رحيم. . إلى الله. . .

إنَّ سكون الصحراء يملأ النفوس روعةً ويكسبـها الصفاء، فلا شىء فيها من صنع الإنسان، كلٌّ ما فى الطبيعة من صنع الخالق. . من صنع الله. . فلا تقع عيون الإنسان فـيها إلاَّ على شمس سـاطعة، ونجوم متـلألئة وقمـر منير، ويحس برياحٍ تسير فى جوٍ فسيحٍ لا يعيقها شىء. .

هناك . . . فى هذا الجو، يستـولى على النفس الصافية حـالة خاصة لا يحسُّ بها ولا يعرفها ساكن المدينة. .

الإنسان البـدوى. . هو نتيجـة طبيعـة طليقـة، كل شىء فيهـا حر، وعلى الفطرة، وهو كذلك حرٌ كطبيعة صحرائه، حرٌ من كل سلطة ومن كل قيد ونظام، اللهمَّ إلاَّ من شيئين قيَّدا عقله ونفسه وهما:

- قيد دينه الوثنى.

- قيد تقاليده القبلية والتى كان مخلصاً لها أشدَّ الإخلاص.

إنَّ بيئة كهذه، لا بدَّ أن تحدّد نوع معيشة ساكنيها وطبيعتهم، فهم رحَّل وراء خيرات طبيعة بلادهم وتحت رحمتها.

إنَّ بيئة كهـذه، لا بدَّ أن تحدِّد أخلاق ساكنيها، فـمن البؤس الذى عرفه هذا البدوى كان الكرم، وإيقـاد النار ليلاً كى يهتدى بها الضيف، والفـقر جعل الغزو مبرراً لديهم.

جال العربى البـدوى ناظريه فى هذه الطبيعة ومنذ القـديم بحث عن كل ما هو قوى فهابـه، ونظر إلى كل ما هو جميل وخيِّر فـأحبَّه. وإلى الاثنين نَظَرَ نظرة قداسة وعبادة وقدَّم له الابتهالات والصلوات، عبدَ الشمس والقمر والمطر والخصب والرياح والنجوم والصخـرة الضخمة والخشبـة الجميلة والشجرة الباسـقة والحيوان و. . . . تعبَّد لبعضـها خشية وخوفًا وتعبَّـد لبعضها الآخر رجاء ومحـبة باستمرار نفعها. . وكان يسـمِّى هذه المعبودات بأسماء. . ويمثِّلها بأشكال سـاجدًا أمامها. . ويطوف حولها. .

هذه كانت الوثنية. .

وجاء الإسلام. .

بُعث النبى محمـد ﷺ، وحارب الوثنية، وحارب تقاليد ومـبادئ الصحراء الممزِّقة للحـياة، حارب الإسلام مـعبودات الإنسان المصنوعـة من حجارة، أو من معدن أو من خشب، وحرَّم الطواف حولها وتقديم الضحايا لها.

وكان عـرب الجاهلية، عـرب ما قبل الإسـلام، عرب ما قـبل ظهور النبى محـمد ﷺ كانوا يعظِّمون الـتماثيل التى كانت تملأ بـيوت الجزيرة العربيـة، ففى الكعبة وحدها قيل إنَّه كان يوجد ما يقارب الـ 360 تمثالا وصنمًا. .

جاء الإسلام، ودعا إلى عبادة الله. . الخالق، الواحد. .

دعا الإسلام إلى التوجُّه مـباشرةً إلى الله. . دون تماثيل ولا أصنام حجرية، دون وسيط، والله يسمع من يصلِّـى له، ومن يتقرَّب إليه بدعاءٍ فـهو مالِكْ الكون وهو خالق كل مـا فى الكون وهو يدير الكون كلَّه بقدرة لا حدوَد لعـقل إنسان أن يفسِّرها أو يدركها.

الله القوى، الرحيم،

إليه دعا الإسلام وإلى وحدانيتـه دعا الرسول محمد ﷺ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾.

آمن المسلم بالله وبوحدانيتـه وبرسالة محمد ﷺ، محمـد رسول الله حقًا. والقرآن الكريم كتاب الله أوحى به إلى نبيِّه. . ورســالة الإسلام ليست موجَّهة إلى العرب فقط، إنَّما هى إلى الناس كافة. .

دعا الإسلام إلى التسامح: (لا إكراه فى الدين).

دين الإسلام، دين الأخلاق، حيث قال الرسول:

«إنَّما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

والأخلاق الرفيعة هى هدف كل مسلم.

يحفظ الإسلام للمسلم إنسانيتـه. . يحرِّم عليه الرهبنة والتنسُّك ويدفعه إلى التمتع بالحياة، ما لم تتعارض مع تعاليم الشريعة.

الإسلام يدعـو إلى الجهاد فى سبـيل الله، والجهاد مفـروض على كل مسلم لإحقاق الحق وإزهاق البـاطل: «من رأى منكم منكرًا فليُغيِّره بيـده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

الإسلام دين التـسامح. . دين التحـرُّر، حرَّر العبيـد من عبوديتـهم، حيث

كانت كثيـرة هى الكفَّارات التى تتوَّج بتحرير رقبة أى بتـحرير عبدٍ من الرق، وإنَّ هذا التحرير هو تقرُّب وطاعة لله كذلك.

لنقرأ هذه الكلمة المعـبرة أشدَّ التعبير عن نظرة الخليـفة عمر بن الخطاب إلى الحرية الإنسانية حين بعث إلى عمرو بن العاص منبهًا ـ «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا».

الإسلام، وعلى الصعـيد الاجتمـاعى، هو أشبه بحكومة، حكومـة مساواة وعدالة، وبصورة أوضح ـ حكومة المساواة الإلهية ـ .

منع الإسلام، وحرَّم أمـوراً مضرةً ومسيـئة إلى الإنسان مثل شـرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، وأكل لحم الميتة والدم... فهذه أمور تسىء إلى الإنسان وتجلب له الضرر...

القرآن.. كتـاب الله المنزَّل، الذى نطق به الرسول محمد ﷺ، إنَّه مـعجزة الإسلام، لا يمكن أن يقلَّد، من القرآن تنبع المعارف والعلوم والجمال...

وكذلك أحاديث الرسول الكريم فهى حِكَم وتوجيـهات وتعاليم موجَّهة إلى المسلمين ليعملوا بها.

هذا هو الإسلام الذى قـضى على العصبـية القبليـة، وأنار الطريق أمام بدو الصحـراء وأما الناس كـافةً. أنار قلوب من اتَّبـعه كـما تنيـر شمس النهـار رمال الصحراء..

غزوة بدر

كان الرسول محمد ﷺ قد وصل إلى يثرب (المدينة المنورة) بعدما ترك مكة مهاجراً مع أصحابه اتقاءً لأذى قريش له ولأصحابه، وحيث إن المسلمين فى المدينة كانوا فقراء (خاصة المهاجرين منهم)، ليس لهم تجارة تدر عليهم وتغنيهم كما لأهل مكة، كان لابد لهم من التعرض لقريش.

ترقَّب النبى محمد عودة قافلة لقريش من الشام إلى مكة ولما علم برجوعها قال لأصحابه:

ـ هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعلَّ اللّه أن ينفلكموها.

لاحظ النبى أن بعض المسلمين لبى نداءه، والبعض الآخر تقاعس، فما كان منه إلاَّ أن قال لهم ثانية:

ـ من كان ظهره حاضراً فليركب معنا.

خرج النبى ومعه 313 رجلا من المسلمين فيهم المهاجرون وفيهم الأنصار، (المهاجرون هم من هاجر من مكة إلى المدينة، والأنصار هم سكان يثرب الذين نصروا النبى محمداً عندما هاجر إليهم).

علم أبو سفيان زعيم قريش وقتذاك بما ينوى القيام به النبى محمد ﷺ، فأرسل إلى مكة يثير حماسة شبابها للدفاع عن القافلة خوفًا منه على تجارة قريش.

خرجت قريش لنجدة القافلة وردٍّ المسلمين وخرجت معهم القينات يغنين، وكان عدد هؤلاء المشركين 950 رجلا.

أرسل النبى رجلان كى يستطلعا أمر القافلة، عادا وأخبرا الرسول بأن قريشًا خرجت وبأن القافلة أصبحت قريبة من مكان يسمى بدراً (وهو مكان بين مكة والمدينة) فقال النبى لأصحابه:

ـ هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها (أى أولادها).

نظر النبى إلى رجال قريش وناجى ربَّه قائلاً:

ـ اللهمَّ هذه قريش قـد أقبلت بخيـلائها وفخرها تحـادك وتكذِّب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى به.

وقع خلاف بيـن المشركين قـبل بدء القتـال مع المسلمين ومن بـعد ذلك بدأ القـتال بين المشـركين وبين المسلمـين، بالمبارزة أول الأمـر، حيث خـرج من بين صفوف المشركين ثلاثة رجال هم:

عتبة بن ربيعة

شيبة بن ربيعة (أخو عتبة)

الوليد بن عتبة بن ربيعة

وخرج إليهم ثلاثة من بين صفوف المسلمين وهم:

عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب.

حمزة بن عبدالمطلب.

على بن أبى طالب.

وقُتل فى هذه المبارزة كل من شيبة وعتبة والوليد ومن ثم عبيدة بن الحارث.

حضَّ النبى رجاله على الصمود وعلى الثباتِ وهو يقول للمسلمين:

ـ والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقـتل صابراً محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلاَّ أدخله الله الجنة، ومن قتل قتيلاً فله سلبه.

اشـتد القـتال بين الـطرفين وحـمى وطيس المعـركة، هُزم الكفـار فى هذه المعركة، وولّوا الأدبار، لحق بهم المسلمون يضربونهم بالسيف ويأسرونهم ومن بين القتلى كان حنظلة بن أبى سفيان كما قُتل الكثير من الكفار.

عـاد المسلمون إلى المـدينة ووقع خلاف بينـهم حول قـسمـة الغنائم وكـاد الاختلاف يؤدى إلى ضعف وتشتت ويزرع فى الـقلوب العداوة والبغضاء، فنزلت من الله آية كريمة تحسم هذا الخلاف وهى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

عند ذلك عاد المسلمـون وتركوا الغنائم لرسول الله يضـعها كيف شـاء كما حكم القرآن، ونـظر النبى إلى الأسرى وكان عـددهم كبـيراً، فاسـتشـار الرسول أصحابه ماذا يفـعل بهم، أشار بعضهم بالنيل منهم أى بقتلهم، أمـا الصحابى أبو بكر فقد أشار برأى آخر قائلا للرسول:

- يا رسول الله، هؤلاء أهلك وقومك، قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، أرى أن تستـبقيهم وتـأخذ الفداء منهم فـيكون ما أخذنا منهم قـوةً لنا على الكفار وعسى أن الله يهديهم بك فيكونوا لك عضداً.

استـصوب النبى مـحمـد ﷺ كلام أبى بكر ورأيه لأن الـغاية كانـت إعزاز الإسلام ونشـره، علمت قريش بما نوى النبـى فعله مع الأسرى، فـبعـثت قريش تطلب فداء أسـراها بمبالغ من المال ومن لم يكن معـه مال يفدى به قريبًـا له وكان يُحسن القراءة والكتابة فقد طلب منه الرسول أن يعلِّم عشرة أولاد من أولاد يثرب (المدينة) القراءة والكتابة.

غزوة أحد

بعد معركة بدر التى هُزم فيها المشركون أمام المسلمين، عزَّ عليهم ذلك وأخذوا يستعدون للانتقام من المسلمين، ويحرِّضون على قتال النبى والمسلمين، فقدَّم الأغنياء منهم المال لتمويل المعركة، واستعد المقاتلون لحمل السلاح مشكلين 3 آلاف مقاتل.

خرج مقاتلو قريش ومعهم خرجت النساء لإثارة حماسة الرجال على الحرب والقتال، ومن هؤلاء النساء كانت هند زوجة أبى سفيان، وكانت حاقدة على المسلمين بسبب قتلهم لثلاثة من أقرب المقربين لها فى معركة بدر وهم:

والدها شيبة بن ربيعة

وعمها عتبة بن ربيعة

وأخوها الوليد بن عتبة بن ربيعة

اجتمعت قريش ومعها حلفاؤها من بنى المصطلق وجماعات أخرى من الأعراب. وكان من بين هؤلاء الرجال غلام حبشى اسمه وحشى وكان راميًا قلّما يخطئ، قيل له إن أنت قتلت حمزة فأنت حر.

خرج جيش قريش، ومعهم القيان والدفوف واصطحب الأشراف منهم نساءهم كيلا ينهزموا.

علم النبى محمد ﷺ بخروج قريش لقتاله، أخذ النبى رأى شيوخ المهاجرين والأنصار فأشاروا عليه بالخروج لقتالهم، دخل النبى غرفته وتقلد سيفه ونظم ألوية جيشه وخرج بألف رجل من المدينة، وكان جيشه مقسمًا إلى ثلاثة ألوية هى:

- لواء المهاجرين
- لواء الأوس
- لواء الخزرج

ـ وفرقة الرماة أى الذين يرمون السهام.

سار جيش النبى حتى نزل قرب جبل أحد شمال شرقى المدينة وهناك جعل الجبل وراء جيشه ووجهه للمدينة. وجعل فرقة الرماة خلف الجيش على ظهر جبل أحد وقال لهم:

ـ إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تبرحوا.

خطب النبى فى المسلمين، وبدأ القتال بالمبارزة كالعادة. والغاية من المبارزة هى رفع معنويات جيش المبارز المنتصر...

ابتدأت المعركة بأن حمل خيالة قريش وفرسانها على المسلمين ثلاث مرات وفى كل مرة كان الرماة المسلمون ينهمرون عليهم بوابل من السهام فيتقهقرون. ثم التقت الصفوف وحميت الحرب، ابتدأت نساء المشركين بضرب الدفوف وأخذن ينشدن الأشعار لإثارة عواطف الرجال.

كان النبى يراقب المعركة، وكان الضعف قد بدأ يظهر فى صفوف المشركين وبدأوا بالتراجع والهزيمة وهرب فرسانهم، وأخذت نساؤهم يبكين ويولولن، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب وعلا تكبير المسلمين ابتهاجًا بانتصارهم. وصاحت النساء فى وجوه الكفار، أنتم نساء ولستم رجالا وأخذن بشتمهم وأخذن يدرن كالمجنونات لإثارة همة الرجال وحماسهم...

فلما رأى الرماة المسلمون الذين كانت مهمتهم حماية ظهور المسلمين فوق الجبل غادروا أماكنهم وأسرعوا إلى ساحة المعركة للمشاركة بجمع الغنائم والأسلاب ونسوا وصيَّة النبى لهم بعدم مغادرة أماكنهم مهما كان وضع المعركة ولم يستجيبوا لنداء رئيسهم عبدالله بن جبير قائلا لهم:

ـ لا .. إن رسول الله أمرنا أن نبقى هنا ..

فقالوا له:

ـ الحرب انتهت . .

فلما رأى رجال قريش خُلُوَّ الجبل من الرماة عادوا إلى المعركة من الخلف والمسلمون منهمكون فى جمع الأسلاب والمغانم، فلما رأوا ذلك دهشوا وتركوا ما بأيديهم وأخذ أحد المشركين يصيح بأعلى صوته بأن محمدًا قل قُتل، فدخل الفشل فى نفوس المسلمين وقال بعضهم لبعض:

ـ علام نقاتل إذا كان محمدًا ﷺ قد قُتل؟

وبعيدًا وقف أبو سفيان ورأى ما آل إليه الوضع فطلب من قواده جمع صفوفهم من جديد والهجوم على أضعف نقطة فى جيش الرسول.

أما المسلمون فما زال فيهم من يقاتل مستميتًا بالدفاع عن النبى الذى خفت الحراسة حوله، وبعضهم ما زال يقاتل قائلاً:

ـ إذا كان محمد ﷺ قد قُتل فقوموا فموتوا على ما مات عليه.

وكان بعض المسلمين قد تركوا المعركة وذهبوا إلى المدينة ولكنهم خجلوا من دخولها فعادوا إلى المعركة.

أما رسول الله محمد ﷺ فقد ثبت فى موقعه يدافع عن نفسه ومعه قلَّة من المسلمين يدافعون عنه ويحمونه مستميتين بين يديه يرد بعضهم السهام بجسده عن الرسول.

جرح الرسول فى هذه المعركة فى وجهه وفى ركبتيه، نظر النبى إلى جماعة من المشركين على ظهر الجبل فقال:

ـ لاينبغى لهم أن يعلونا، اللهم لا قوَّة لنا إلاَّ بك.

سقط الكثير من المسلمين فى هذه المعركة بين قتيل وجريح، وكان الشخص منهم يتلقى السهم بجسده لئلا يصيب الرسول، قتل من المسلمين أكثر من سبعين رجلا، ومن بين القتلى كان حمزة بن عبدالمطلب عم النبى محمد ﷺ وبطل

المسلمين الذى لا يهدأ، قتله وحشى العبد الزنجى بضربة رمح حيث كان كامنًا له يراقبه، استقبلت هند زوجة أبى سفيان مقتل حمزة بفرح كبير وذهبت إلى حيث جثته فى ساحة المعركة، تناولت سكينًا وأخذت تطعن الجثة بسكينها تعمل فيها تمزيقًا وتمثيلا وهى تصرخ بحقد، ففقأت عينيه، وقطعت أذنيه وجدعت أنفه وبقرت بطنه ولم تكتف بذلك بل شقَّت صدره وانتزعت كبده وحاولت أكلها ومن ذلك الوقت سميت هند بآكلة الأكباد.

وكان النبى محمد ﷺ خلال حدة الهجوم عليه ومحاولة المشركين النيل منه قد نظر إلى أحد الذين كانوا ما زالوا يدافعون عنه بقوة وبحماسة واسمه دجانة وقال له:

- ذهب الناس وأنت فى حلّ من بيعتك فارجع والحق بقومك..

فأجابه أبو دجانة:

- ما على هذا بايعناك، وبايعنا الله.. ولا على هذا خرجنا.. ولا خير فى العيش بعدك..

ركع أبو دجانة أمام النبى وهو يبكى وقال النبى:

- اللهمَّ اهدِ قومى فإنهم لا يعلمون.

تألم النبى مما حصل فى أحد وبما آلت إليه الأمور وأخذ ينادى المسلمين بالعودة إلى القتال، فوجئ المسلمون الهاربون بما سمعوه.. وقالوا لبعضهم:

- هذا رسول الله ينادينا .. إنه حى ...

وعاد المسلمون للقتال ولنصرة النبى وهم خجلون مما فعلوا ورؤوسهم إلى الأرض، عادوا وهم يكبِّرون ..

انتهت معركة أحد ولم يحاول المشركون ملاحقة المسلمين لأنهم كانوا يعلمون أنهم انتصروا ولكن المسلمين لم ينهزموا.

وقف أبو سفيان على الجبل ونادى بأعلى صوته:

ـ إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر، وموعدكم بدر العام المقبل.

وهكذا انتهت معركة أحد، أولها كان نصراً للمسلمين، ثم انقبلت إلى نصر للمشركين..

وبقى النبى ..

وبقى الإسلام ..

غزوة الخندق

بعد جلاء يهود بنى النضير عن المدينة، تحركوا للنيل من المسلمين والثأر من النبى محمد، فتحالفوا مع قريش التى كانت تكنُّ للنبى كذلك كل حقدٍ وكرهٍ وتتحيّن الفرص لإيذائه.

اليهود، وأكثرهم كان يسكن المدينة يتألفون من عدة قبائل هى:

(بنو قريضة، بنو النضير، بنو قينقاع)، وكثيراً ما حاولوا الإيقاع بالنبى مما اضطر الرسول إلى طرد بنى النضير من المدينة ليأمن شرَّهم ويرتاح من مؤامراتهم عليه.

جاء وفد من اليهود إلى مكة (وهم بنى النضير) كى يحاولوا أن يشكلوا حلفًا مع قريش لمحاربة النبى واتصلوا بأبى سفيان زعيم قريش ومن كبار قادة المشركين، وشكوا له ما حلَّ بهم من أذى وتهجير على أيدى المسلمين..

خرج اليهود من عند أبى سفيان وأخذوا يطوفون على زعماء قريش يثيرون حقدهم ضد النبى..

رضيت قريش بالتحالف مع اليهود ضد النبى محمد(ﷺ)، هذا إضافة إلى مجموعة أخرى من القبائل تحالفت معهم ضد المسلمين، مكونين فريقًا قويًا وهذه القبائل هى(بنو غطفان، بنو هلال، بنو أسد، قيس، بنو كنانة، بنو مرّة).

قاد أبو سفيان جيوش هذا التحالف الكبير واتجه بهم إلى المدينة مقرِّ الرسول.. علم الرسول بما يجرى ضده، جمع أصحابه وأخبرهم بأن اليهود حزّبوا الأحزاب وأقاموا تحالفًا لمحاربة المسلمين، ولكن النصر سيكون للمسلمين.

تشاور النبى مع أصحابه وقوّاده، فى هذه الأثناء تقدم إلى النبى أحد أصحابه وهو سلمان الفارسى وقال:

ـ نحفر خندقًا حول المدينة فيكون بيننا وبينهم فاصل مما يمكّننا من الدفاع عن المدينة.

استحسن النبى رأى سلمان وخرج مع أصحابه إلى خارج المدينة وباشروا

بحفر الخندق، وضاعفوا من عملهم جادّين واشترك بهذا العمل جميع المسلمين بما فيهم النبى، وكان سلمان صاحب الفكرة يعمل بجد وبدون ملل، وكان المسلمون يتنافسون عليه ويتقربون إليه كل منهم يقول سلمان منّا، سلمان منّا، حتى اختلفوا فى ذلك، علم النبى بذلك وحسم الأمر بقوله:

ـ سلمان منّا أهل البيت.

وهذا كان أعظم تكريم لسلمان الفارسى لأنه كان غريبًا بينهم.

أتم المسلمون حفر الخندق حول المدينة وكان ذلك قبل ثلاثة أيام من وصول جيوش الأحزاب الذين بدأوا يصلون ويتجمعون حول المدينة..

علم المسلمون بوصول الأحزاب والحلفاء الذين تشكّلوا ضدهم، فدبّ الرعب فى قلوبهم وخافوا واحتاروا ماذا يفعلون أمام هذه الجموع الكثيرة من المشركين ومن اليهود.. وعمل من فى المدينة على بث روح الخوف بدافع إضعاف معنويات المسلمين..

تقدّم المشركون نحو الخندق، فوجئوا بوجوده. لأن مثل هذا العمل لم يكن معروفًا لدى العرب من قبل.

حاصر المشركون المدينة وتوقفت الأعمال وسُدَّت المنافذ إليها ومُنع الدخول والخروج منها وإليها، خاف الناس من الجوع ونقص الطعام لدى المسلمين.

مضت أيام والحصار حول المدينة يشتد.. وكان يهود بنى قريظة ما زالوا موجودين قرب المدينة بديارهم وكان بينهم وبين النبى عهد ينص بعدم التعرض لبعضهم البعض وعدم مناصرة أحدهم لعدو الآخر..

حاول بنو النضير وهم الذين عملوا على إنشاء هذا الحلف لمقاتلة النبى، حاولوا الاتصال بيهود بنى قريظة لحملهم على الوقوف معهم ضد النبى ونقض العهد مع الرسول محمد(ﷺ)، وتمّ اجتماع بين زعيم يهود بنى النضير مع زعماء بنى قريظة وبعد مناقشات بينهم قام زعيم بنى قريظة واسمه كعب بن أسد القرظى إلى العهد المكتوب مع النبى ومزقه وقال:

ـ قد وقع الأمر الآن فتجهزوا للقتال.

وأخذ يهود بنى قريظة يستعدون للقتال ضد المسلمين.

علم النبى بما فعله بنى قريظة وبأنهم خرقوا العهد الذى أقامه معهم، حزن لذلك وغضب ممًّا فعلوه، وأراد التأكد من ذلك، فأرسل إليهم بعض المسلمين ليتأكدوا وما أن وصلوا إلى حصنهم حتى فوجئوا بالشتائم والتهديد وإعلان الحرب عليهم وعلى النبى..

عاد الوفد وأخبر النبى بما حصل معهم من بنى قريظة. وفرح المشركون بما فعله بنو قريظة من نقضهم العهد مع النبى، قام أحد المسلمين بعمل سياسى مع بنى قريظة بالاتفاق مع النبى محمد(ﷺ)، إذ أوهم بنى قريظة وهم لا يعلمون بأنه أسلم وبأنه من أنصار النبى محمد(ﷺ).. جاءهم كصديق فحذّرهم من قريش ومن تحالف الأحزاب، وبأنهم يريدونهم حطبًا لهذه الحرب، يدفعون بهم ليكسبوا النصر بواسطتهم وخوّفهم منهم، ومن أجل ذلك أشار عليهم بأن يأخذوا من قريش ومن غطفان عشرة من أشرافهم يكونوا ضمانةً فى أيديهم وقال لهم:

ـ إن نشبت الحرب ولم تظفروا فلا تتركوا العشرة حتى يعيدوا عهدكم وعقدكم مع محمد كما كان. لأنهم هم المسؤولون عن الحرب.

فرح بنو قريظة بمشورة هذا الإنسان وقالوا:

ـ أحسنت وأشرت بالرأى الصواب.. ونحن لن نخرج من حصننا حتى نأخذ منهم الرهائن العشرة..

عاد نعيم وذهب إلى قريش وحلفائها ليكمِّل بقية الخطة، واجتمع بزعماء قريش وقال لهم:

ـ... إنى قد جئتكم بنصيحة ولكن لتكن سراً بيننا. قالوا:

ـ... فما ترى؟

قال:

ـ اعلموا أن بنى قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد من فسخ عقد السلم بينهم، وبعثوا إليه نادمين طالبين أن يعيد العهد والعقد بينهما، وسيأخذون من قريش عشرة رهائن ويعطوها إلى محمد ليقتلهم مقابل إعادة

العقد.. وقالوا له بأنهم سيكونون معه على حرب قريش ومن معها.. فإن أرسلوا لكم يطلبون عشرة رهائن فلا تقبلوا ولا تعطوهم إلاَّ رجلاً واحداً.

غضبت قريش مما سمعت وتأمَّل نعيم وجوه القوم وسُرَّ فى قرارة نفسه، ثم أكمل قائلاً لهم:

ـ أنا أرى أن تأخذوا منهم رهائن تبعثوهم إلى مكة وعندما يخونونكم تقتلوا الرهائن.

علا الصراخ والضجيج وأخذ الجميع يشتمون بنى قريظة واليهود واتهموهم بالخيانة وبالغدر متوعدين.

وقد حصل ما كان يتوقعه المسلمون، وما خطَّط له نعيم، ذلك المسلم الذكى الداهية والذى استطاع أن يوقع بين يهود بنى قريظة وبين قريش وحلفائها.

علم النبى والمسلمون بغدر اليهود وبخيانتهم واتفقوا، أنَّه إذا ما انتهت الحرب، سوف يعملون لمقاتلة اليهود..

دام حصار المدينة عشرين يومًا، وعمَّ الخوف سكان المدينة ونشط المنافقون داخل المدينة يوجِّهون اللوم للنبى ويبثون الفتنة فى صفوف المسلمين مما زاد فى خوفهم.

نظر النبى إلى المسلمين، وعلم ما هم عليه من خوف، ولكن تأدية الرسالة كانت همَّه الأول، وقد مضى 18عامًا على بدء نشر الدعوة الإسلامية ونشر دين الله...

صمَّم على المضى قدمًا لتثبيت دعائم الدين الجديد.. صلَّى النبى ركعتين لله وتوجَّه بالدعاء طالبًا نصره وعونه.

كان الكفار بانتظار بدء المعركة رغبةً بالقضاء على المسلمين وحبا بالنهب والسلب والسبى.

حاول بعض الكفار وعددهم خمسة اجتياز الخندق للوصول إلى المسلمين، يتقدمهم عمرو بن عبدودٍ العامرى، وكان هذا الفارس من كبار أبطال العرب وكان

يُعد بألف فارس. . وكـعادة ذلك الزمان خلال الحرب، حيث كـانت تبدأ بالمبارزة بين اثنين، واحد من كل فريق.

لم يتجرأ أحد المسلمين من التقدم إلى عمرو بن عبدوِدْ لمقاتلته، ونادى النبى بالمسلمين طالبًا مَنْ ينازله؟ ولم يتجرأً أحد من النزول إليه. . باستثناء على بن أبى طالب الذى تشجَّع وتقدَّم إلى النبى قائلاً:

أنا له يا رسول الله. .

رفض النبى أول الأمر طلب علىّ مرَّتين ثم قبله فى الثالثة بعدما أصرَّ علىّ رضى الله عنه على منازلة عمرو بن عبدود وقال له:

ـ تقدَّم إليه.

وألبسه خوذة حديديةً على رأسه، نظر النبى إلى أصحابه وقال:

ـ نزل الإيمان كله إلى الشرك كله.

وكان عمرو فـارسًا طويل القامة يلبس الحديد من رأسه حـتى قدميه، ورغم هذا تلقى ضـربـة من على أودت بحيـاته والمسلمـون يـنظرون إلى ذلك وصـاح على: الله أكبر.

لقد قَتَلَ على عـمرو بن عبدوِدْ العامرى، فـرح النبى والمسلمون، وارتفعت معنوياتهم وزادت ثقتهم بأنفسهم بل عادت الطمأنينة إلى المدينة كلها. .

أما المشـركون فقد أحـسُّوا بالذل وبخيبـة الأمل فهذا أكبـر أبطالهم وأشجع فرسانهم قد قُتل، وأثار الذعر والخوف فى قلوبهم.

دعا النبى الله سبحانه وتعالى بقوله:

ـ اللهم منزل الكتاب. . اهزم الأحزاب. .

جاء الليل وكـانت الكارثة على قريش ومن معهم، حـيث هبَّت عليهم ريح قوية، قلعت خيامهم، وأجفلت خـيلهم ودبَّ الرعب فى قلوبهم، فقام أبو سفيان وركب جمله ونادى فى الناس:

ـ النجاة. . . النجاة. .

وبدأ الجميع ينادون بالرحيل والنجاة بأنفسهم هاربين ولم يبق منهم أحد.

طلع الفجر.. وعاد المسلمون إلى المدينة وعمّت الفرحة والسعادة الجميع والنبى يردد بأعلى صوته:

- لا إله إلا الله وحده.. أنجز وعده.. وأعزّ جنده.. ونصر عبده.. وهزم الأحزاب وحده.. فلا شيء بعده.. والمسلمون يرددون وراءه بفرح كبير...

صلح الحديبية

بقيت قريش تقاوم النبى محمداً (ﷺ) وتعمل جاهدةً لإلحاق الأذى به وبالمسلمين الملتفين حوله والمؤمنين بدعوته إلى دين الحق والمساواة..

بقيت قريش على موقفها العدائى من النبى محمد(ﷺ) رغم ما لحقها من نكسات وهزائم مع حلفائها والمشركين بالله.. وكانت دائمًا تنتظر الفرص للانقضاض على النبى.

ومع مرور السنين، كانت الدعوة الإسلامية تزداد قوةً وصلابةً، ويزداد عدد المسلمين المؤمنين بالله وبرسوله، حتى كانت السنة السادسة من هجرة النبى محمد إلى يثرب (المدينة)، وكانت المدينة مقر المسلمين ومركز نشاطهم وعاصمتهم، وكانت مكة مقر الكفار ومركز نشاطهم وعاصمة تحالفهم وتجمعهم، ففيها كان أكبر تجمع لأصنام وأوثان العرب حيث تحج إليها القبائل العربية رغبةً بأصنامها وأملاً بالمتاجرة معها.

كان لقريش نفوذ كبير بين العرب فمنهم السادة والزعماء والقادة، كما كانت لهم تجارة واسعة معروفة مع الشام ومع اليمن، ومن هذه التجارة جنوا الأرباح الطائلة وعظمت أكثر مكانتهم وزعامتهم بين العرب.

من أجل ذلك كانت قريش تتحين الفرص باستمرار لقتال النبى محمد(ﷺ) والقضاء على الإسلام.

اجتمعت زعامات قريش فى بيت يسمًى دار الندوة فى مكة وتشاوروا بأمر النبى محمد (ﷺ) وما وصل إليه. وكيف سيكون شأنهم معه، وتوصلّوا إلى قرار وهو التحرش به واغتيال المسلمين بهدف إثارة البلبلة والتشويش على المسلمين فى المدينة.

أرسلت قريش 81 رجلاً إلى أطراف المدينة ووصلوها فجراً.. رآهم أحد المسلمين فأسرع وأخبر النبى بذلك، أرسل الرسول فرقةً حاصرتهم وقبضت عليهم وجيء بهم إلى المدينة مكبَّلين الأيدى، وجاء المسلمون لمشاهدتهم أذلاًء مكبلين

مطأطئى الرؤوس. . وذات يوم. . رغب النبى وبنـاءً على أمر الله. . القيـام بزيارة إلى مكة والطواف بالمسجد الحـرام. . فنادى منادى الرسول بالمسلمين للذهاب إلى مكة وزيارة الكعبة. .

استعد المسلمـون لذلك، وساروا وراء النبى باتجاه مكة. . أرسل النبى رجلاً إلى مكة يستطلع الأخبار ويرى ما ينوى المشركون عمله. .

عاد هذا الرجل وأخـبر النبى بأن قريشًـا تستعد لمـقاتلة النبى وردّه عن زيارة الكعبة. . واسـتمر النبى بالسيـر نحو الكعبة. . وأصرّ أهل مكـة على منعه وعدم تمكينه من زيارة الكعبـة، وخرجوا بجموعهم من مكـة ووصلوا إلى مكان فنصبوا خيـامهم وكلّفوا خالد بن الولـيد(ولم يكن قد أسلم بعد) ومـعه 200فارس لمراقبة المسلمـين أو منعهم من التـقدم، عـرف النبى بذلك فـانحرف عن الطريق وخـالد يراقب ذلك. .

حان وقت الظهيـرة قام النبى ومعه المسلمون وأدوا صـلاة الظهر وخالد عن بعدٍ يراقب ويرى ما يحصل. . .

تابع النبى سيره حتى وصل إلى مكان بئر قريب من مكة يسمى بئر الحديبية، ونصب المسلمون خـيامهم فى هذا المكـان وكان هذا البئر قـليل الماء. . والمسلمون بحاجة للماء طلبًا للشرب وللوضوء. . توضأ النبى محمد(ﷺ) ودعا الله تعالى أن يفيض البئر بالماء وكان ما أراد الرسول وفاض الماء من البئر وأصبح بمتناول الجميع.

أرسل النبى محمدٌ(ﷺ) بعثمان بن عفّان إلى مكة ليخبر قريشًا بأن المسلمين جاؤوا مكة للعمرة فقط ولم يأتوا محاربين.

ذهب عثمان، ولكن قبض عليـه هناك ووصلت الأنباء إلى النبى بأن عثمان قُتل، غضب النبى وقال:

ـ لن نذهب من هنا حتى نحارب القوم.

وطلب النبى من المسلمين أن يبـايعوه على القتال، وبعـد أيام جاء من مكة وفد قبيلة خزاعة وأخبروا النبى بأن أهل مكة يريدون منع النبى من دخولها. . قال

لهم النبى بأنّه لم يحضر مقاتلاً وإنّما لزيارة بيت الله الحرام.

عرض النبى على الوفد المصالحة والمهادنة، حمل الوفد رأى النبى إلى أهل مكة فقام أحد زعماء مكة وهو عروة بن مسعود الثقفى وقال:

ـ إن محمداً عرض عليكم خطةً رشيدة فاقبلوها. ومن ذلك جاء عروة إلى حيث ينزل النبى والمسلمون لمحادثته فى الأمر، أقام عروة بضعة أيام عند النبى يراقب فيها المسلمين وأشد ما كانت دهشته عندما رأى النظام والطاعة والانضباط بينهم، وكم كان المسلمون يعظّمون النبى ولا يرفعون صوتهم إذا تكلموا معه أو تحادثوا معه ولا يرفعون صوتهم فيه، وذلك احترامًا وإجلالاً.. وإذا ما قام النبى إلى الوضوء يتكاثرون حوله ويتناولون ماء الوضوء من تحت يديه الطاهرتين تبركًا..

عاد عروة إلى مكة وحدَّث قومه بما رأى وبما سمع ونصحهم بمصالحة النبى محمد (ﷺ). وما هى إلا أيَّام حتى جاء وفد من مكة إلى النبى محمد(ﷺ)، وكانوا من كبار زعماء مكة برئاسة سهيل بن عمرو، اجتمعوا بالنبى واتفقوا على أن يعود النبى هذا العام إلى المدينة، ويعود العام المقبل إلى مكة ويدخلها لثلاثة أيام بعد أن يتركها سكانها وذلك حرصًا على سمعة قريش أمام القبائل العربية..

اتفق الطرفان على الصلح ووصفوا شروطه.. وهى:

1 ـ وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات.

2 ـ من جاء المسلمين من قريش يردونه ومن جاء قريشًا من المسلمين لايلزمون برده.

3 ـ أن يرجع النبى من غير عمرة هذا العام ثم يأتى العام المقبل فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش فيقيم بها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف فى القراب والقوس.

4 ـ من أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه.

وقبل الاتفاق على هذه الشروط، دخل على المجتمعين شاب ممزّق الثياب مغبّر الوجه.. كان الغضب قد نال منه، تقدّم وجلس قرب الرسول، نظر إليه سهيل بن عمرو فإذا به أمام ابنه أبى جندل الذى كان قد أسلم ولاقى أشدّ أنواع العذاب والسجن من أهله.

غضب سهيل من ذلك وطلب من الرسول بأن يردّه له..

فقال النبى:

- لم نتفق بعد على الصلح!!

أجاب سهيل:

- إذاً والله لا أصالحك على شيء أبداً.

قال له النبى:

- هل تجيره، ولا تعذّبه وتعطيه الأمن إذا أرجعته إليك؟

رفض سهيل ذلك..

هنا قال أبو جندل:

- معشر المسلمين.. أأرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟؟

عند ذلك رفض المسلمون ردّه إلى أهله وتمسّكوا به.. وكادت عملية الصلح تفشل فقام النبى وأخذ بيد الشاب وتقدم إلى أبيه قائلا:

اللهمّ إذا كنت تعلم أنّ أبا جندل صادق فاجعل له مخرجًا...

ثم توجّه الرسول إلى الناس وقال:

- ليس عليه بأس إنّما يرجع إلى أبيه وأمه وإنى أريد أن أتمّ الصلح مع قريش..

اختلف المسلمون بقرار الصلح مع قريش، بعضهم أراد دخول مكة والطواف بالكعبة والبعض الآخر عتب على النبى لأنه قبل الصلح، فما كان من النبى إلا أن

قال لهم:

إنى رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصرى، ولن يضيعنى أبداً.

عاد سهيل بن عمرو بعد أيام ومعه رد قريش على النبى، وتوافد الناس من عدة قبائل ليشهدوا الصلح مع النبى وكتبت اتفاقية الصلح بين قريش والمسلمين..

أخذ النبى يملى الاتفاقية وأمر أن يكتب فى مطلعها:

بسم الله الرحمن الرحيم

اعترض سهيل بن عمرو..

عاد النبى وأمر أن يكتب:

هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله والملأ من قريش..

اعترض سهيل بن عمرو ثانية وقال:

ـ لو أقررنا بأنَّك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا حاربناك..

وأخيراً توصَّل النبى وسهيل بن عمرو إلى النص التالى:

«هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله والملأ من قريش وسهيل بن عمرو.........».

إلى آخر الاتفاقية وكتبت على نسختين، واحدة مع النبى والثانية مع سهيل بن عمرو. عند ذلك وقف زعماء قبيلة خزاعة وقالوا:

ـ نحن فى عقد محمد وعهده.

ووقف زعماء قبيلة بنو بكر وقالوا:

ـ نحن فى عقد قريش وعهدهم.

انتهى الاجتماع، وكانت أول معاهدة يعقدها الرسول مع قريش، وعاد زعماء القبائل إلى ديارهم..

أمـر النبى بنحـر الإبل وحلق الرؤوس، أى طلب الرســول من أتبـاعـه أن يعتمروا هناك، وبعد ذلك عاد النبى وأصحابه إلى المدينة.

انتشر خبر عقد الصلح مع المسلمين فى أنحاء مكة وأخذ العديد من سكانها يفـرُّون إلى المدينة والدخول فى الإســلام وكانوا رجـالا ونساءً.. وكـان النبى يرد الرجال إذا طالبت بهم قـريش، أما النسـاء فلم تردّ لأن الاتفاقيـة لـم تنص عليهن، إن الإسلام يحرِّم بقاء الزوجة المسلمة مع زوج كافر...

غزوة خيبر

عندما جاء الرسـول محمد (ﷺ) إلى المدينة(يثرب) مهـاجراً من مكة بسبب ما لاقاه من أهلها من إيذاء وسوء معـاملة له ولمن آمن به وبدعوته الإسلامية، كان فى يثرب:

1 ـ قبيلة الأوس

2 ـ قبيلة الخزرج

3 ـ اليهود.. الذين جاؤوا إليها وإلى مناطق أخـرى فى شبه الجزيرة العربية هربًا من اضطهاد الرومان لهم خاصة زمن الامبراطور الرومانى أدريان.

كانت مقاليد الأمور فى المدينة بيد اليهود أول الأمر، وكانوا يعملوا بالزراعة حيث كانت معظم الأراضى الخصبة بأيديهم، كـما عملوا بالتجارة وبصناعة بعض الصناعات اليدوية البـسيطة، ثم مالبث أن انتقل زمام الأمـور من أيدى اليهود إلى العرب فى نهاية القرن الخامس الميلادى.

كان اليهود ينقسمون إلى عدة قبائل أهمها:

(بنو قينقـاع، بنو النضير، بنو قريظة، بنو زريق، بنو ثعلـبة، بنو حارثة..) ولكن أهمهـا وأكبـرها كانت القبـائل الثلاث الأولى، وأهم أمـاكن إقامتـهم كان فى:(تيماء، فدك، خيبر، وادى القرى، يثرب).

كثيـراً ما كان يحتـدم الصراع بين اليهود وبقـية القبائل العربيـة بسبب بسط السيطرة والنفوذ على المدينة أو بسبب التفاخر والتنافس المعنوى بينهم أو بين العرب أنفسهم بسبب العصبية القبلية..

هذا يدل على أن الوضع فى المدينة كان مفككًا وكـان ينذر بالخطر والانفجار باستمرار، وقد سئم السكان هذا الوضع، كما كانت المدينة تفتقر إلى الزعيم الذى يوحِّدها ويدير شؤونها..

فى هذا الوقت كان قـد هاجر النبى محمد(ﷺ) إلى المديـنة هو وأصحابه، بعد أن أمرهم الله سبحانه وتعالى بالهجرة إليها...

رأى النبى محمـد(ﷺ) ما وصلت إليه المدينة من حـال التفكك والحزازات القبلية وفكّر فى إيجـاد الحلول لها والتوفيق بين سكانها والذين أصبـحوا يتشكلون من:

1 ـ المهاجرين

2 ـ الأنصار

3 ـ المشركين

4 ـ اليهود

سنّ النبى النظم التى تنظّم العلاقـات بينهم جميعًا وتسـاوى بينهم على قدم المساواة فى الحقـوق والواجبات، وجعل رابطة المودة تحـلّ مكان العصبية الـقبلية، وكفل حرية المعتقد للجميع بما فيهم اليهود...

وافق السكان فى المدينة على تنظيمات النبى محمـد، ووقعوا عليها خطيًا.. وهذه حالة جديدة فى الجزيرة العربية، لم يتعودها السكان هناك... وهذا ما جعل من النبى مصلحًا اجتماعيًا وسياسيًا بارعًا..

أول الأمر، رحّب اليهود بهجرة النبى محـمد(ﷺ) رغبةً منهم فى الاستفادة منه فيما بعد بما يحقّق أمانيهم ورغباتهم السياسية.. وكان اليهود هم أول من أخلّ بهذا الميثاق، وعـمدوا إلى بث روح التفرقة بين السكان وإثارة الأحـقاد والضغائن بينهم. فكانوا يؤلّبون قـبيلة الأوسِ على الخزرج تارةً.. والمسلمين علـى المشركين تارةً أخرى، والأنصار على المهـاجرين مرةً ثالثة، كمـا لجأوا إلى أسلوب آخر وهو الدخول فى مناقشات ومجادلات كـلامية ويحرفُون الكلام. هذا الأسلوب لم يفد اليهود، لأن العقيدة الإسلامية كانت راسخة فى نفوس رجالها.

حاول الرسول الكريم أول الأمر اتخـاذ أسلوب الإقناع مع اليهود عن طريق الحجج والأدلّة والبـراهين، ولكن ذلك لم ينفع.. مما دفع بالنبى محمّـد إلى اتباع أسلوب جديد فى التعامل معهم..

فى العـام الثانى من هجـرة الرسول إلى المدينة عـمَدَ اليـهود إلى مـقاومـته بالسلاح بعدمـا فشلوا فى الأساليب الكلامية وأسـاليب الفتنة خاصةً بعدمـا انتصر

المسلمون على قريش فى غـزوة بدر. . وقد قال أحد وجهاء اليـهود وهو كعب بن الأشرف لما علم أن المسلمين انتصروا ببدر وقتلوا سادات قريش:

ـ هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان مـحمد أصاب هؤلاء، لبطن الأرض خيرٌ من ظهرها.

ثم ذهب إلى مكة وأخذ يثير قريشًا على المسلمين وعمل على هجاء الرسول وكبار الصحابة بشِعْره. اتفق المسلمون على ضرورة التخلص منه.

كان بنو قينقاع أول اليهود الذين طردوا من المدينة، ومرةً قالوا للرسول:

ـ لا يغرَّنك يا محـمد أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحـرب، فأصبت منهم فرصة، إنَّا والله إنْ حاربناك لتعلمنَّ أنَّا نحن الناس.

كل ذلك جـعل الرسول يضطر إلى مـحاصـرتهم فى ديارهم وقـاتلهم لمدة 15يومًا وانتصر عليهم وأجلاهم عن المدينة، ففرَّ قسم منهم إلى خيبر وقسم آخر فرَّ إلى بلاد الشام.

ثم كانت غزوة أحد. . فى العام الثالث من الهجـرة، وانتصر فيها المشركون على المسلمين، هذا إضافـة إلى أن بنى النضير أخذوا يشتمـون بالمسلمين وأظهروا الفرح من خسـارتهم. .

أخيرًا صـمَّم المسلمون على التخلص من بنى النضير، فـما كان منهم إلا أن هاجموهم وحاصروهم، فخرخ قسم منهم إلى بلاد الشام، أما الأشراف منهم فقد التجـأوا إلى خيـبر. . ولم يبق فى المديـنة من اليهـود سوى بنى قريـظة، وأخذوا يثيرون القبائل العربية خاصة قبيلة قريش على المسلمين كما حاولوا إقامة حلف من قريش والأحزاب الأخرى لمهـاجمة المدينة والقضاء على المسلمـين وأخذوا يشهِّرون بهم ويتهجَّمون على الدين الإسلامى، نظر إليهم الرسول نظرة ريبٍ وشك خاصة عندما ظهر تواطؤهم مع أعـدائه مما يشكل خطرًا عليه وعلى المسلمين جميـعًا كما أصبحوا جواسيس للأحزاب ولقريش. عند ذلك قرَّر النبى التخلُّص منهم وطردهم من مدينة خيبر.

أما خيبر، فهى واحة تقع شمال المدينة أى شمال يثرب، على مسيرة خمسة أيام سيرًا على الأقدام وتشتهر بأراضيها الزراعية الخصبة وبكثرة بساتينها من النخيل، وكانت خيبر أهم موطن لليهود فى الجزيرة العربية. وقد عمل اليهود على تحصينها بالقلاع الحربية المنيعة وأحاطوها بالخنادق. حتى اعتُبر يهود خيبر أقوى القبائل اليهودية فى الجزيرة العربية بأسًا وفروسية وأوفرهم مالا وأكثرهم سلاحًا. . .

كان هدف النبى محمد (ﷺ) هو نشر دين الله ودعوة الحق فى كل أنحاء الجزيرة العربية، بل أكثر من ذلك ولتحقيق هذا، وجد النبى أنَّه من الصعب عليه تحقيق هذا والخطر لا يزال موجودًا، وهذا الخطر يتمثَّل باليهود بتجمعهم الحصين المنيع. . فى خيبر.

علم النبى أن حلفًا قام بين يهود خيبر ويهود المدينة الذين هربوا منها ويهود فدك ويهود تيماء ووادى القرى. . كل هؤلاء اليهود قد تحالفوا فيما بينهم إضافة إلى إحدى القبائل العربية وهى بنى غطفان وذلك للقضاء على الدين الإسلامى.

وجد النبى أن إقامة صلح معهم أو توقيع معاهدة حسن جوار صعبة للغاية، لأنَّ التجربة معهم فشلت فى الماضى ولم يلقَ منهم سوى الغدر والخيانة والتآمر، بل أكثر من ذلك كان هناك خوف من أن يلجأ اليهود من إقامة تحالف مع الروم أو مع الفرس ضد المسلمين.

من أجل ذلك قرَّر النبى المبادرة بالقضاء على تجمع اليهود فى خيبر قبل أن يقوموا هم بعمل يسىء إلى الإسلام ويفتك بالمسلمين. .

استعدَّ الطرفان للقتال. . ووقفت قريش وبقية القبائل العربية ترقب وتنتظر نتيجة هذا الصراع والذى سيؤدى حتمًا إلى زوال إحدى القوتين. . إمَّا زوال قوة اليهود أو زوال قوة المسلمين. .

سار الرسول محمد(ﷺ) مع رجاله المسلمين والمؤمنين بدعوته وبالله، ساروا جميعًا إلى خيبر وكان عددهم 1600مسلم. .

علم يهود خيبر بتقدم المسلمين، فتأهبوا للقتال وابتدأت الحرب. .

كانت خيبر ذات حصون وقلاع متينة، غير أن المسلمين استبسلوا وأظهروا بطولة خارقة فى ضرب المدينة وتشديد الحصار حولها خاصة عندما سلَّم النبى محمد(ﷺ) الراية إلى على بن أبى طالب الذى استطاع الاستيلاء على أحد الحصون وقتل قائده اليهودى وهو الحارث بن أبى زينب.

أخيراً استسلم اليهود، وتم فتح خيبر بعدما استماتت اليهود فى الدفاع عن حصنهم المنيع أمام المسلمين ولم تستطع قلاعهم المنيعة وحصونهم القوية من الصمود طويلا أمام بسالة المسلمين.

وبذلك.. استطاع المسلمون أن يأمنوا غدر اليهود وخيانتهم ومؤامراتهم ومكرهم.. كما دبَّ الرعب والذعر فى قلوب قريش وبقية القبائل العربية حيث كان اليهود قوة سياسية يحسب لها حساب فى الجزيرة العربية.

كان النبى محمد(ﷺ) قد أوصى المسلمين بعدم التعرض لليهود وعدم التعامل معهم معاملة إيذاء، وقد تركهم يقومون بفلاحة أرضهم، كما حاول النبى إزالة البغضاء والحقد من نفوسهم فقرَّر أن يصاهرهم وتزوج من ابنة أحد أشرافهم وهى صفية بنت حيىٍّ بن أخطب.

تغاضى النبى عن اليهود الذين رجعوا إلى المدينة بعد سقوط خيبر، وبقى اليهود يقومون بممارسة شعائرهم الدينية...

فتح مكة

إذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابه..

لا تذل العرب حتى تذل قريش..

لا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة..

كان الرسول محمد يرغب بدخول مكة ونشر الإسلام فيها ولكن كان يمنعه من ذلك ما كان قد عقده من معاهدة مع قريش وهو ما يعرف بصلح الحديبية. كان ذلك في السنة السادسة من الهجرة إلى يثرب.

كان فتح مكة بعد صلح الحديبية، بل هما حلقتان متصلتان ببعضهما أو أنهما مرحلتان متتابعتان وكان مما جاء في شروط صلح الحديبية:

(أن لا يعتدى أى من الطرفين على الآخر أو من مؤيديهم وحلفائهم)..

وقد علمنا.. أن قبيلة خزاعة دخلت في عهد رسول الله، وقبيلة بكر دخلت في عهد قريش، وكان بين خزاعة وبكر دماء في الجاهلية، كمنت نارها بظهور الإسلام، وكان السلام قائماً بين الطرفين والمعاهدة محترمة من الجميع حتى وقع الخلاف بين بكر وخزاعة. وسبب هذا الخلاف بدأ بين رجلين من القبيلتين كان أحدهما يشتم النبي محمّداً بشعره، فقام الخزاعي وضرب الشاتم وهو من بني بكر وتطوّر النزاع بين القبلتين وكانت بنو بكر أكثر عدداً فهزموا بني خزاعة الذين هربوا والتجأوا إلى حرم الكعبة..

كانت قريش قد تدخلت في هذا النزاع وقدّمت السلاح والرجال لبني بكر ضد خزاعة، وهذا التدخل يعتبر إخلالا بشروط صلح الحديبية..

ركب سالم بن عمرو الخزاعي ناقته وأسرع إلى المدينة يستنجد بالنبي محمد(ﷺ) وأتى بعد أيام إلى المدينة وفد من خزاعة ودخلوا على النبي يشكون إليه ما أصابهم من بني بكر وقريش...

غضب النبي مما سمع، وصمّم على فتح مكة، وجعل ذلك سرّاً، وأخذ يعدُّ العدة لذلك، وأخذ المسلمون يتجهزون للحرب.

خافت قريش من مـهاجمة المسلمـين لها وأخذوا يترصدون الأخـبار، وكان زعيم قريش فى هذه الأثناء أبا سفيان وكان فى تجارة إلى بلاد الشام، فعلم بالأمر، أسرع بالحضور إلى مكة واتجه فـوراً إلى المدينة لكى يتوسط مع النبى محمد (ﷺ) ويجدِّد عهد الصلح.

وصل أبو سفيان المدينة وكان النبى فى المسجد يصلِّى مع أصحابه، وقف أبو سفيان بباب المسجد فنظر إليه النبى وقال:

ـ أغدرتم يا أبا سفيان؟

ذهب أبو سفيان يفتش عن رجل يساعده ويتوسط له لدى النبى، حتى التقى بعمر بـن الخطاب، رفض عمر التوسط له لدى النبى، فـذهب إلى ابنته أم حبـيبة والتى كانت زوجـة للنبى ليوسِّطها فـى الأمر.. دخل البيت وتقـدم ليجلس على فراش كان على الأرض، فـتقدمت ابنته أم حبـيبة وطوت الفراش، فاسـتهجن أبو سفيان، وقال لها:

ـ يا بينة، أترفضين أن أجلس على هذا الفراش وأنا أبوك؟!!

فقالت له:

ـ نعم، هذا فراش رسول الله، لا أسمح لك بالجلوس عليه وأنت مشرك!!

خرج أبو سـفيان بعد أن أيقن أن ابنتـه لن تستجيب لطلـبه، فقصد فـاطمة الزهراء ابنة الرسول مـحمد(ﷺ) وسألـها أن تجيره لدى رسـول الله.. ولكنه عاد خائبًا مهمومًا، ماذا يفعل؟

رجع أبو سـفيان إلى مكـة، ووجد قريشًـا فى وضع قلق وخوف ممـا يُعدّه المسلمون فى المدينة، وكانوا بحاجة لمعـرفة ذلك، وما هى نية النبى، ولم يكن فى مقدورهم معـرفة شىء لأن النبى أحاط كل تحركات المسلمين بكـتمان شديد ومنع خـروج الأخـبـار من المدينة، ولكـى يطَّلع المشـركـون فى مكة على نـوايا النبى محمَّـد(ﷺ)، ذهبوا إلى زوجة رجل اسمـه حاطب بن أبى بلتعـة، وكان هذا قد أسلم وذهب إلى المدينة وبقيت زوجـته فى مكة، ذهبوا إليهـا وأقنعوها بأن تكتب إلى زوجها تسأله عما يعرفه عن تحركات المسلمين ونواياهم من غزو مكة.

كتب حاطب رسالة إلى زوجته، وصادف فى هذا الوقت وجود امرأة سوداء فى المدينة وتريد العودة إلى مكة حيث لها فيها حانة للطرب فى الأفراح والأتراح، اتصل بها حاطب سراً وأعطاها الرسالة لتوصلها إلى زوجته مقابل عشرة دنانير.

خبّأت هذه المرأة رسالة حاطب تحت شعرها وذهبت تتستر لئلا يراها أحد..

علم النبى بخبرها عن طريق الوحى فأرسل بطلب على بن أبى طالب والزبير بن العوام وأمرهما باللحاق بالمرأة وأخذ الرسالة منها.

أسرع على والزبير وراء المرأة حتى أدركاها فى مكان يسمّى روضة خاخ. فسألاها عن الرسالة، فأنكرت، وهدداها إن لم تخرج الكتاب الذى معها. خافت وركعت على الأرض متوسّلة لهما وباكية ومدّت يدها إلى شعرها وأخرجت الرسالة، أخذا الرسالة منها وتركاها فى سبيلها وعادا إلى المدينة، وكان فى الرسالة ما يلى:

«إن محمداً قد نفر، فإنى لا أدرى إياكم أراد أو غيركم، فعليكم الحذر».

جمع النبى المسلمين للصلاة فى المسجد والرسالة فى يده وقال لهم:

ـ أيها الناس، إنى كنت سألت الله عزَّ وجلَّ أن يخفى أخبارنا عن قريش، وأن رجلا منكم كتب إلى مكة يخبرهم بخبرنا.. فليقم صاحب الكتاب وإلا فضحه الوحى».

أول الأمر لم يقم أحد، أعاد النبى الطلب، فوقف حاطب كاتب الرسالة وهو يرتجف وقال:

ـ أنا يا رسول الله صاحب الكتاب...

ـ وقف عمر بن الخطاب وقال للرسول:

ـ دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق.

رفض النبى ذلك وقال:

ـ إنه قد شهد بدراً (أى معركة بدر)، أخرجوه من المسجد..

استعد المسلمون للخروج إلى مكة وكان عددهم حوالى عشرة آلاف رجل

بقـيادة النبى مـحمـد(ﷺ)، ولم يكن أحد مـن المسلمين يعـرف إلى أين وجهـة سيرهم، اعتقد البعض أن المكان المقصود هو ديار قبيلة هوازن.

أما فى مكة فقد كلَّفت قريش أبا سفيـان وعكرمة بن أبى جهل بمتابعة أخبار المسلمين وتحركاتهم، كان المسلمون قد وصلوا منطقـة تسمى العقبة وهى قريبة من مكة، وصل أبو سـفـيـان وعكرمـة إلى هناك وكـان الوقت لـيـلا، كـان النبى محمد(ﷺ) قد أمر بإشعال النيران أمام الخيم، فشاهد أبو سفيان كثرة النيران فهاله منظرها...

فى أثناء الليل وبينمـا أبو سفيان ورفـيقه عكرمـة ينظران إلى كثافـة النيران ويتحدثان، مرَّ بهـما العباس عم النبى أثناء جولة كان يقوم بهـا، عرف العباس أبا سفيان من صوته فناداه:

ـ يا أبا حنظلة..

سـمع أبو سفـيان من يناديه بأبى حـنظلة فعـرف من هو صاحب الصـوت وأجاب:

ـ فداك أبى وأمى يا أبا الفضل!

سأل أبو سفيان عن النيران ولمن هى، أجابه العباس:

ـ هذا رسول الله قد جاء بما لا قبل لكم به ومعه عشرة آلاف من المسلمين.

ظهر الخوف على أبى سفيان وطلب من العباس المشورة والرأى، أشفق عليه العبـاس وطلب إليه أن يركب مـعه إلى مكان رسـول الله ليأخـذ له الأمان ورجع عكرمة إلى مكة..

شاهد عمر بن الخطاب أبا سفيان يدخل خيمة النبى محمد مع العباس فلحق بهما ودخل وراءهما وقال للنبى:

ـ يارسول الله.. هذا أبو سفيان، عدو الله، قـد أمكن الله به بغير عهد ولا عقد، دعنى أضرب عنقه. قال العباس:

ـ يارسول الله، إنى قد أجرته، وجئت به إليك لتؤمنه إكرامًا لى.

بقى النبى ساكتًا والعباس يستشفعه وعمر يكرِّر قوله..

نظر النبى إلى أبى سفيان وقال:

- أسلِم تَسْلم..

قضى أبو سفيان ليلته فى خيمة العباس وأثناء الليل أخذ يستعيد كل ما جرى ويحدِّث نفسه نادمًا على تسليم نفسه.. ولو أنه رجع إلى مكة وجمع العرب وحارب بهم النبى. فى هذه اللحظة ناداه النبى حيث كانت خيمة العباس إلى جانب خيمة النبى وقال له:

- إذًا كان الله يخزيك!

ارتجف أبو سفيان خوفًا، حيث علم بأن الرسول علم بما فى ضميره وعرف بما يحدِّث به نفسه.

وبات أبو سفيان ليلة ثانية فى خيمة العباس، وبعد ذلك غادر أبو سفيان معسكر النبى إلى مكة وكان قد أعلن إسلامه وكذلك غادر العباس إلى مكة لينذر سكانها ويطلب إليهم الطاعة لرسول الله وينادى فيهم:

*إن من قال لا إله إلا الله، وحده لا شريك له وشهد أنَّ محمدًا رسول الله وكفَّ يده فهو آمن.

* من جلس عند الكعبة بدون سلاح فهو آمن. فقال العباس:

- يا رسول الله، إن سفيان يحب الفخر، فلو خصَّصته بمعروف.

فقال له النبى: ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن.

ثم أكمل النبى كلامه للعباس:

- ومن أغلق باب داره فهو آمن.

خاف العباس من غدر أبى سفيان، فمنعه من الذهاب إلى مكة وأعاده إلى خيمته للمبيت ليلة ثالثة حتى لا يدخل مكة قبل المسلمين.

شاهد أبو سفيان من على مرتفع جموع المسلمين تمر أمامه، فرقةً فرقة،

وأمام كل فرقة قائدها ورايتها، وكان ذلك بشكل منظم، ممَّا أدهش أبا سفيان وملأ قلبه حقدًا وحسدًا. .

ومرَّت فرقة الرسول يتقدمها سعد بن عبادة وبعد ذلك استدعى النبى إليه قادة الفرق وأعطاهم التعليمات والأوامر وعيَّن لكل منهم مكانًا يدخله إلى مكة وأمرهم ألا يقاتلوا إلا إذا اضطروا لذلك دفاعًا عن النفس وألا يقتلوا أحدًا.

دخل أبو سفيان مكة، استقبله أهلها وسألوه عمَّا يجرى، فأجاب:

ـ هذا محمد فى خلق عظيم.

عمَّ الرعب فى أرجاء مكة وانتشر الاضطراب، ودخلها المسلمون. .

وهم ينادون بالأمان لمن أسلم، ولمن دخل بيته وأغلق بابه عليه أو لمن دخل فناء الكعبة، أو دخل دار أبى سفيان.

دخل النبى مكة واتجه نحو الكعبة، وكان الناس قد أحاطوا بها، تقدم نحو باب الكعبة رافعًا صوته:

ـ لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ثم توجه الرسول إلى قريش وقال:

ـ ما تظنون، وما أنتم قائلون.

أجاب سهيل بن عمرو:

ـ نقول خيرًا ونظن خيرًا، أخ كريم وابن أخٍ كريم. .

فقال الرسول:

ـ اذهبوا فأنتم الطلقاء.

دهش القرشيون من تسامح النبى وعفوه عنهم بالرغم ممَّا لاقاه منهم، بكى بعضهم وشكره البعض الآخر وترك لهم أموالهم وأرواحهم.

دار النبى حول الكعبة ونظر إلى الأصنام المعلَّقة عليها وكان عددها حوالى 300 صنم. . أخذ النبى بيده الكريمة الطاهرة مجموعة من الحصى وقذف بها على الأصنام وقال:

ـ جاء الحق وزَهَقَ، إنَّ الباطل كان زهوقًا.

نظر النبى إلى كبـير أصنام قريش واسـمه(هُبَل) وكان بأعلى الكعبـة، وقال لعلى بن أبى طالب:

ـ أتصعد يا علىٌّ أم أصعد عليك لنلقيه؟

أجابه على:

ـ بل تصعد أنت يا رسول الله على كتفى.

وضع النبى رجله على كتف على بن أبى طالب ليصـعد ويلقى (بهُبَل)، لم يستطيع الإمام تحمُّل ثقل النبى، كمـا عرف النبى عجز الإمام عن حمله فنزل وهو يبتسم وقال:

ـ لو أن قبيلة ربيـعة ومُضَر جهدوا أن يحملوا بضـعةً منى وأنا حى لما قدروا ولكن قف يا على.

عـاد الرسـول ورفع الإمـام علىّ الذى تناول الصـنم هُبَل ورمى به الأرض فحطَّمه والمشركون يشاهدون ذلك..

دخل النبى إلى الكعبة فـصلَّى ركعتين وعندما جاء وقت الظـهر صعد بلال على سطح الكعبة وأذن للصلاة، وبعد انتهاء الأذان، صلَّى المسلمون وراء النبى ثم خطب فيهم الرسول.

عاد النبى إلى الكعبة وأغلق بابها وأعاد مفاتيحها إلى شيبة، الذى دهش من ذلك فقام من فوره وأعلـن إسلامه، ثم توجه النبى إلى الصفا والمروة يتـبعه جمع غفير وكان على المروة صنم كبير، أمر النبى بتحطيمه.

أخذ الناس يأتون إلى النبى أفواجًا، يبايعونه ويعلنون إسلامهم على يديه.

أخذ النـبى يبعث بالرسل إلى القـبائل البـعيـدة عن مكة حاملين الرسـائل يدعوها إلى الإسلام، بعضها قبل، وبعضها رفض، وبعضها تريث.

حنين

عندما خرج النبى من المدينة متوجهًا إلى مكة ضمن تكتم شديد، حتى إن أكثر المسلمين لم يعرف إلى أين يسير بهم النبى.

اعتقدت قبائل هوازن أن المسلمين يسيرون إليهم، وينوون قتالهم وانضمت إلى هوازن قبيلة قيس وقبيلة ثقيف، وجعلوا شيخ قبيلة جشم واسمه دُريد بن الصمَّة مستشاراً وكان شيخًا وعُرف عنه شدةً بأسه فى الحرب وحسن الرأى والتدبير.

سار جميع رجال هوازن ومعهم عيالهم ومالهم وغنمهم وإبلهم باتجاه وادى حنين وذلك بناءً على رأى ومشورة مالك بن عوف قائد قبيلة هوازن الذى رأى أن يقاتل كل رجل وأهله وماله وراءه. وحاول دُريد بن الصمَّة أن يثنى مالك بن عوف عن رأيه هذا فلم يقبل مالك.

علم النبى محمد (ﷺ) بتجمع هوازن بوادى حنين ومعهم بنى ثقيف وغيرهم من القبائل العربية، وكان الرسول ما يزال بمكة، وأمر المنادى أن ينادى بالمسلمين للاجتماع.

اجتمع المسلمون، وأمرهم النبى أن يستعدوا للجهاد ووعدهم بغنائم كثيرة وتجمَّع لديه 12 ألف مقاتل وسار النبى أمامهم حتى وصلوا إلى مسافة قريبة من مكان تجمع هوازن وأحلافها، أرسل النبى من يستقصى أخبار وأوضاع وتحركات هوازن.

عاد الرجل ليُعلم النبى بما سمع وبما شاهد، صلَّى النبى بالمسلمين وإذا بالمشركين يهجمون على المسلمين من كل جانب، ارتبك المسلمون لهذا الهجوم ودبَّ الرعب فى قلوبهم وزاغت أبصارهم واشتد الضغط عليهم، وسقط منهم الكثير من القتلى والجرحى.. وتقدمت نحو النبى فرقة من هوازن تريد حسم المعركة بقتل النبى، وبدأ المسلمون يفرُّون من المعركة، منهم من صعد الجبل يحمى نفسه والبعض شردت به فرسه والنبى يراقب كل ذلك، فرأى جنوده يفرُّون من ساحة المعركة تاركين نبيَّهم وهو يناديهم ويذكِّرهم قائلا:

- يا معشر الأنصار إلى أين تفرُّون.. أنا رسول الله.. إليَّ إليَّ..

لم يرد عليه أحد وفى ذلك نزلت الآية الكريمة:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[التوبة: ٢٥]. .

كان العباس عم النبى قربه، وأدرك خطورة الوضع فأخذ يدافع عن النبى محيطًا ومن معه من الرجال بالنبى مدافعين عنه، وصرخ العباس وكان جهورى الصوت، صرخ بالمسلمين الفارين بناء على أمر النبى قائلا:

- يا معشر الأنصار، يا أصحاب بيعة الرضوان.. ودوَّى صوته فى الوادى وصار الأنصار يقولون:

- لبيك، لبيك...

وتكاثر العائدون واجتمع حول الرسول جمع كبير وأنزل الله سكينته على الرسول وعلى المؤمنين.

توجَّه النبى بالدعاء إلى الله قائلا:

-... اللهمَّ لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان...

دار قتال عنيف.. تغير حال المسلمين فى المعركة وبدأت كفَّتهم ترجح والنصر يقترب وعاد المسلمون الهاربون إلى خوض القتال من جديد ضد المشركين وإذا بالمشركين ينهزمون..

هدأت المعركة وانتشر المسلمون يجمعون الأسلاب والغنائم من سلاح وخيل وجمال.

بعد هذه المعركة، أسلم الكثير من المشركين عندما رأوا عناية الله بالمسلمين، وبعدها توجه النبى نحو الطائف فحاصرها مدة شهر ولم يدخلها وعاد النبى إلى مكة، وبعدما وصل النبى إلى مكة واستقر به الوضع هناك، أتى إليه العديد من عبيد وموالى أهل الطائف وأسلموا على يديه، ومن ثم تتابعت وفود أهل الطائف لتدخل فى دين الله وأمر الرسول بجمع الأسلاب والغنائم وكانت من العدد والحجم ما يثير الدهشة.

معركة اليرموك

بلاد الشام قبل الإسلام

كانت بلاد الشام خاضعة للدولة البيزنطية قبل ظهور الإسلام، وكان فيها ثلاث دول عربية أو ممالك كانت تباعًا وهى: (الأنباط، تدمر، الغساسنة).

1 ـ الأنباط:

وعاصمتهم مدينة البتراء، وتتميز بلاد الأنباط بأنها جبلية تكثر فيها المرتفعات الصخرية، سُمّيت عاصمتها بالبتراء(أى الصخرة) لأنّها كانت منحوتة بالصخر، استطاعت هذه الدولة فى أيّام عزّها أن تمتد إلى مسافاتٍ شاسعة، والأنباط هم أقوام من العرب عملوا بالتجارة بفضل موقع بلادهم، عند ملتقى الطرق البرية التجارية بين اليمن ومصر وفينيقيا وفلسطين وبلاد الشام والعراق والخليج العربى. انتهت الدولة النبطية عام 106م. حيث قضى عليها الرومان.

2 ـ تدمر:

تقع تدمر فى وسط الصحراء السورية (بادية الشام)، سماها الإغريق باسم بالميرا زى بلدة النخيل، كان لموقعها أهمية كبيرة بين ساحل البحر المتوسط فى الغرب وبين بلدان الخليج العربى فى الشرق وبفضل ذلك كانت تدمر سوقًا مهمًا للتجارة، يقصدها العرب من كافة المناطق للتبادل التجارى خاصة بعد زوال دولة الأنباط.

أهم حكام تدمر الذين لمع اسمهم فى تاريخ المدينة هو أذينة بن حيران بن وهب، الذى خض عدة معارك ضد الفرس وانتصر عليهم وردّهم إلى بلادهم، ليس هذا فقط بل انتزع منهم شمال العراق، ممّا جعل امبراطور روما يكافئه على هذا العمل بأن أنعم عليه بلقب قائد جيوش الشرق...

بعد مقتل أذينة حكمت البلاد زوجته زنُّوبيا التى اشتهرت بجمالها وذكائها وحسن إدارتها لشؤون المملكة.

كانت زنُّوبيا تجيد عدة لغات منها: اللغة الآرامية، واليونانية، واللاتينية،

وكان قَصرها مقصداً لرجال العلم والفلسفة والآداب، كما كانت زنُّوبيا تجيد ركوب الخيل وتتصف بالشجاعة وحسن القيادة.

استطاعت زنُّوبيـا أن تجعل من تدمـر، دولة قوية، بعد أن وسَّعت حدودها نحو الشمال والجنوب ووصلت جيوشها إلى مصر.

عندمـا رأت زنُّوبيا أن تدمـر أصـبحت دولة قـوية واسـعة الأرجـاء أعلنت استقلالها عن الدولة الرومانية، خاف منها الرومان وقرَّروا القضاء عليها والتخلص منها قـبل أن يكبر شأنهـا وتتعاظم قـوتها أكثر. . وجـاء عام 272م. عام انتصار الرومان علـى زنُّوبيا ودخول الجـيوش الرومـانية مـدينة تدمر، وهدمـوها وأسروا ملكتها الجميلة. .

3 ـ دولة الغساسنة:

أسَّسـتها أسـرة قادمـة من بلاد اليمن بعد خـراب سد مـأرب، كانت دولة الغساسنة فى أرض حوران جنوب بلاد الشام، وكانوا أول أمرهم يخضعون لسلطة البيزنطيين (الروم)، وقـد امتدت دولتهم حتى مدينة دمشق. وأشـهر ملوكهم كان الملك الحـارث الغسَّـانى الثـانى الذى قضى مـعظم سنين حكمـه يحارب الفـرس وحلفاءهم.

بعد الحارث الغسَّانى جاءت ملوك ساءت علاقاتهم مع الروم البيزنطيين وكان آخر ملوك الغـساسنة هو الملك جـبلة بن الأيهم الذى انضم إلى العرب المـسلمين الذين جاؤوا لمقاتلة الروم فى معركة اليرموك بقيادة خالد بن الوليد عام 636م.

ظهور الإسلام

عندما بُعث النبى محمد ﷺ رسول الله مبشراً بدين الإسلام، دين التوحيد والسلام والحق والعدالة.. كان يوجد فى المنطقة قوتان كبيرتان هما:

- قوة الدولة الفارسية فى الشرق، فى العراق وبلاد فارس.
- قوة الدولة البيزنطية فى الغرب، فى سوريا ومصر وتركيا.

بدأ الدين الإسلامى ينتشر أول الأمر فى الجزيرة العربية، وعمل النبى محمَّد ﷺ على جمع القبائل العربية المتفرقة والمتناحرة فيما بينها، جمعها فى أمة واحدة ودولة واحدة، بعدما كانت تفتك بها العصبية القبلية أى التعصب للقبيلة، وبفضل الدين الجديد ثارت فى نفوس المسلمين روح البطولة والشجاعة.

ولم يكن العرب يقطنون داخل الجزيرة العربية فقط إنَّما كانوا يعيشون فى مناطق قريبة منها ومحيطة بها، وهذا كما رأينا، سابق فى وجوده لدولة الأنباط والتدمريين والغساسنة، وليس هذا فقط بل كان يوجد عدة قبائل عربية، إضافة إلى مملكة الحيرة العربية فى جنوب العراق، وأهم هذه القبائل العربية التى سكنت المناطق المتاخمة للجزيرة العربية هى:

قبيلة جذام، طيء، عذرة، قضاعة، كلب..

كان النبى محمد قد أرسل الكتب إلى أمراء هذه القبائل يدعوهم للاعتراف بالإسلام، كما كان الرسول الكريم قد أرسل كتباً مشابهة إلى ملوك المنطقة وحكامها يدعوهم للإسلام..

غير أن حادثةً حصلت وهى مقتل شجاع بن وهب مبعوث النبى محمد ﷺ إلى دولة الغساسنة، أغضبت الرسول ودفعته إلى إرسال حملة صغيرة لتأديب الغساسنة الذين غدروا برسوله الذى بعثه إليهم.

بعد وفاة الرسول محمد ﷺ، خلفه أبو بكر الصدِّيق الذى عمل على إتمام ما بدأه رسول الله من نشر دين الإسلام وكلمة الحق، وأخذ يُعدُّ العدة لإخضاع البيزنطيين وإخضاع عرب الشام لحكم المسلمين وتأمين حدود الدولة الإسلامية الفتية من الخطر البيزنطى..

وجد المسلمون أنهم أصبحوا أقوياء ومـوحَّدين بزعامة الخليفة الأول أبى بكر الصدِّيق، وبعدمـا أصبحت معنوياتهم قوية، بعد كل ذلك فكروا بأن يـتقدموا إلى قلب البلاد السورية لنشـر الدين الإسلامى وإنقاذ القبائل العـربية من سيطرة الروم وظلمهم. ماذا حـصل بين المسلمين وبين الروم زمن النبى محمـد ﷺ؟ ماذا فعل النبى محمد ﷺ بعد مقتل مبعوثه شجاع بن وهب؟

كان رسـول الله محمد ﷺ قـد أرسل حملةً تأديـبية مكوَّنة من ثلاثة آلاف مقاتل إلى مؤتة بقيادة زيد بن حارثة عام 629 م. التقت هذه الحملة بجيوش الروم الكثيرة العدد.. انتـهت هذه المعركة بهزيمة المسلمين واستـشهاد زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبى طالب ابن عم النبى ممَّا اضـطر خالد بن الوليد أن يعود بمن بقى من جيش المسلمين إلى المدينة.

كانت هذه أول مـعركة تحـصل بين المسلمين والبـيزنطيين، بعـد ذلك أخذ البيزنطيون يستـعدون لغزو الدولة الإسلامية الفتية، ولكى يبـعد النبى محمّد خطر الروم عمل على تجـهيز جـيش كبيـر وسار به نحو بلدة تبـوك الواقعة فى شـمال الحجاز، كان ذلك فى شهر تشرين الأول عام 630 م. لم يحصل اشتباك مع الروم لأنهم كانوا قد انسحبوا، دخل النبى مـحمد ﷺ بلدة تبوك وصالح أهلها على أن يدفعوا الجـزية للمسلمين، ومنحهم الأمـان والاحتفاظ بأملاكـهم وترك لهم حرية العبادة.

بعد حملة تبوك قوى موقف النبى مـحمد ﷺ، وعَظُمت معنويات المسلمين فجاءت الوفود من مـختلف القبائل ومن مختلف مناطق الجـزيرة العربية إلى النبى محمد ﷺ لتعلن إسلامها وتأييدها للرسول.

كان النبى محـمد ﷺ لا يزال يفكِّر بعمل يؤمِّن به حدود الدولة الإسـلامية فى الشمـال، مع بلاد الشام، أعطى أوامـره بإعداد جيش كـبير لغـزو بلاد الشام وأسند قيادة هذا الجيش إلى أسامة بن زيد بن حارثة، لكن النبى محمد ﷺ توفى عام 632 م. ممَّا أخَّر قيام هذه الحملة إلى العام التالى.

بعدما وطَّد الخليفة الأول أبـو بكر الصدِّيق حكم المسلمين فى داخل الجزيرة

العربيــة، وجَّه أنظاره نحو أكــبر دولتين فى زمــانه (الفرس والروم) واللتين كــانتا تتنازعان السيادة على العراق وعلى سوريا.

أعدَّ أبو بكر الحملات ووجهها إلى جنوب بلاد الشام عام 633 م.

وكانت فى ثلاث حملات:

- الحملة الأولى بقيادة عمــرو بن العاص الذى سلك الطريق الساحلى باتجاه فلسطين.

- الحملة الثانية بقيادة يزيد بن أبى سفيان.

- الحملة الثالثة بقيادة شُرَحْبيل بن حسنة الذى سلك طريق تبوك متجهًا نحو وادى الأردن.

أول صدام بين المسلمين والــروم كان جنوب البحر الميت حيث انتــصر القائد المسلم يزيدَ بن أبى سفيان على البيزنطيــين الذين انسحبوا بعد هذه الهزيمة، فلحق بهم يزيد بن أبى سفيان وهزمهم ثانية قرب مدينة غزَّة..

كذلك كان القــائد عمرو بن العاص يسجِّل بدوره الانــتصارات فى فلسطين مجتاحًا المدن والقرى.

دبَّ الذعر فى نفــوس البيزنطيين أمــام انتصارات المسلمين وتقدمــهم، وكان امبراطور الروم البيزنطيين يومها واسمه هرقل قــد أصدره أوامر بتجهيز حملة كبيرة من مائة ألف مقاتل وأعطى قيادتها إلى أخيه ثيودوروس.

علم الخليفة أبو بكر بما يُعدُّه امبراطور الروم من عدَّة لمجابهة المسلمين، فأمر بإرسال أبى عبيــدة بن الجرَّاح على رأس جيش لمساعدة الجيوش الإســلامية الثلاثة التى تحارب فى بلاد الشام، وكــذلك أمر الخليفة القائد خــالد بن الوليد الذى كان يفتح العراق، أمره بالتوجه فوراً إلى الشام لمساعدة الجيش الإسلامى هناك،على أن تكون له القيادة العامة على جميع الفرق.

ظهر خالد بن الــوليد فجأة فى بلاد الشام بعــدما اجتاز الصــحراء السورية، وكان واقفًا شــمال شرقى دمشق فى مؤخرة الجــيش البيزنطى وذلك فى 24 نيسان عام 634 م. ثم انضم إلى بقية الجيوش الإسلاميــة وجمعها تحت قيادته فى أجنادين

ودارت معركة مع البيزنطيين كان النصر فيها للمسلمين.

بعد الانتصار فى أجنادين، أصبحت الطريق نحو الشام مفتوحة أمام المسلمين، وتوزعت الجيوش الإسلامية فى أنحاء البلاد تفتحها وتخضعها لسيطرتها.

توجه شرحبيل بن حسنة إلى الأردن.

وتوجه عمرو بن العاص إلى فلسطين.

وتوجه يزيد بن أبى سفيان نحو الساحل يرافقه أخوه معاوية.

وتوجه خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح نحو دمشق.

أخذت المدن تتساقط أمام تقدم المسلمين، وحقق خالد بن الوليد الانتصارات على البيزنطيين وأصبحت دمشق فى قبضة يده وحاصرها لمدة 6 أشهر ثم دخلها بعدما صالح أهلها بشروط ومبادئ كالتى فرضها النبى محمد ﷺ سابقًا على تبوك وغيرها.. والتى أصبحت نموذجًا لشروط الصلح مع سائر المدن الشامية، وفى الوقت ذاته كان أبو عبيدة بن الجراح يدخل دمشق من مكان ثانى والتقى الجيشان فى وسط المدينة - جيش خالد وجيش أبى عبيدة.

بسقوط دمشق بأيدى المسلمين، سارعت بقية المدن السورية إلى فتح أبوابها أمام القادة المسلمين ومن هذه المدن حمص، حماة، بعلبك، أما بيت المقدس وقيسارية، فلم تفتحا أبوابهما للمسلمين وكانتا تنتظران نجدة من هرقل ملك البيزنطيين الموجود فى أنطاكية، والذى كان يعمل لحشد جيش كبير جمعه من كافة أنحاء الامبراطورية البيزنطية وقيل بأنه بلغ نحو 140 ألف مقاتل.

معركة اليرموك

عندما علم المسلمون بنبأ حشد الجيوش البيزنطية فى أنطاكية، قرروا الانسحاب إلى مكان يكون باستطاعتهم فيه التحرك بحرية أكثر والاتصال بالخليفة فى الحجاز. وبناء على نصيحة خالد بن الوليد تراجع المسلمون إلى وادى يعرف باليرموك.

كان جيش البيزنطيين يفوق جيش المسلمين عددًا وعدة، مما جعل بعض

العرب المسلمين ينصحون خالد بن الوليد بالتراجع والانسحاب إلى الجزيرة العربية خوفًا من كثرة الروم.

غير أنَّ خالد بن الوليد رفض هذه النصائح وقال:

ـ لسنا بمرتحلين حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين.. في هذه الأثناء توفي الخليفة أبو بكر الصدِّيق وخلفه عمر بن الخطاب، أرسل الخليفة الجديد بكتابٍ عزل فيه خالد بن الوليد عن قيادة الجيوش الإسلامية وعيَّن بدلا منه أبا عبيدة بن الجراح، كتم خالد أول الأمر نبأ عزله خوفًا من أن يؤثِّر ذلك على وحدة صف المسلمين وعلى معنوياتهم خاصة وأنهم قادمون على أعظم معركة ضد الروم، غير أنّ خالدًا وأبا عبيدة تعاونا معًا في الإعداد للمعركة الفاصلة وفي تنظيم الجيوش، قسَّم خالد الجيوش إلى:

* الميمنة بقيادة عمرو بن العاص.
* الميسرة بقيادة يزيد بن أبي سفيان.
* القلب بقيادة أبي عبيدة بن الجراح.

أصبح المسلمون في أتمِّ الاستعداد للقتال ولمجابهة البيزنطيين، وكانت تأتيهم الإمدادات من المدينة المنورة، تريَّث المسلمون بالقتال.

في هذا الوقت وقبل بدء المعركة انضم الملك الغسَّاني جبلة بن الأيهم إلى المسلمين تاركًا صفوف حلفائه القدامى (الروم).

في يوم 23 آب عام 636 م. حيث اشتد حرُّه وعصفت ريحه وعلا غباره.. وقعت المعركة بين الجيشين..

وجَّه خالد تعاليمه إلى النساء اللواتي كنَّ مع الجيوش الإسلامية وقال لهن:

ـ من رأيتموه موليًا، فاقتلنه..

وحثَّ خالد جنوده على الصبر والثبات أمام جموع الروم.

حاول الروم شقَّ صفوف المسلمين ونجحوا بذلك، ولكن النساء كانت

بالمرصـاد. . نزلن من التلّ حـيث كنّ واقفـاتٍ يراقبن المعـركـة، وهنّ مسلَّحـاتٍ بالأعمرة والحجارة صارخات:

- لستم بعولتنا إن لم تمنعونا!

وكان ذلك بدافع إثارة حماسة المقاتلين المسلمين، وثباتهم فى المعركة.

التحم الجيشان ودار القتال على أشدّه، استبسل خالد فى المعركة وكذلك بقية القـادة والجنود ودارت الدائرة على الروم الذين كـان كل عـشـرة منهم مـربوطين بسلسلة حديدية لئلا يهـربوا، وهذه كانت من أسباب نكبتهم وهزيمـتهم حيث إنه كان إذا سقط واحد سقط الجميع معه.

وثارت الحمـيَّة فى نفوس المقاتلين المسلمـين، وشقُّوا صفـوف الروم وقاتلوا ببسالة ممًّا اضطر الروم إلى الانسحاب وبدأوا بالفرار.

وصل خالد إلى خيمة قائد الروم ثـيودوروس وهو شقيق الامبراطور هرقل، تعقَّب المسلمون الروم الفارين أمامـهم يعملون السيف فى رقابهم، وتمكَّن المسلمون من تحقيق الانتصار على الروم وشتَّتوا شملهم. هُزم الروم فى اليرموك..

وبدأوا بالانسحاب إلى شمال سوريا..

علم المسلمون المقاتلون فى نهاية المعركة بأن الخليفة أبو بكر توفى حيث كان خالد قد كتم عنهم ذلك منذ بدء المعركة لئلا يؤثر ذلك على سير القتال..

تابع المسلمون زحفـهم بعد معركة الـيرموك يفتحـون المدن ويحتلون البلاد، وانصرف أبو عبيدة بن الجرَّاح، قائد الجيوش الإسلامية الجديد ينظِّم شئون البلاد.

ولم يبق خارجًا عن سلطة المسلمين سوى مدينة بيت المقدس التى أبى رئيس كهنتها تسليمها إلاَّ إلى الخليفة بالذات بعد حصار العرب لها مدة أربعة أشهر...

وتابع المسلمون بعد أن استتب الوضع لـهم واطمأنوا إلى وضعهم العسكرى زحفـهم إلى أنطاكية حيث تجـمع الروم وهناك أوقعوا بهم هزيمـة ثانية ودخل أبو عبيدة وخالد المدينة.

بانتصار المسلمين فى اليرموك وخسارة البيزنطيين لكامل سوريا، وقف هرقل إمبراطور الروم البيزنطيين قائلا:

- السلام عليك يا سوريا، سلامُ مودع لايرى أنَّه يرجع إليك أبدًا..

كان السكان فى كافة المدن والقرى التى يدخلها المسلمون يستقبلونهم بفرحٍ شديد قائلين:

- لولايتكم وعدلكم أحبٌّ إلينا ممَّا كنا فيه من الظلم والغشم..

وهكذا كان.. قد أتم جميع القادة المسلمين دخول كافة المدن السورية - وبقيت قيسارية خارج أيدى المسلمين حتى العام 640 م، تقاوم، وكانت تصلها الإمدادات من البحر، والحصار حولها.

فى هذا الوقت حيث كان المسلمون يفتحون الشام ويبسطون سلطة الدين وسلطة الحق وسلطانه كان بالمقابل جيش مسلم آخر يقاتل فى العراق، بقيادة سعد بن أبى وقَّاص مقوِّضًا أركان الدولة الفارسية ومحطمًا أمجاد الفرس وداكًا عروشهم وينتصر عليهم فى أشهر موقعتين:

موقعة القادسية عام 637 م.

موقعة نهاوند عام 645م.

بعد ذلك وفى العام 639 م. تقدم عمرو بن العاص نحو مصر وفتحها ودخل الإسكندرية عام 643 م.

تعتبر معركة اليرموك بداية النهاية للدولة البيزنطية.

وفيما بعد.. اجتاح فلسطين مرض الطاعون الذى قضى على الكثير من السكان ومنهم أولاد خالد بن الوليد والقائد أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان وأصبحت قيادة الجيوش لعمرو بن العاص.

بيت المقدس والخليفة

كان عَلَم هرقل امبرطور البيزنطيين آخر علم خفق فوق مدينة بيت المقدس،

وكان أول مـا فعله المسلمون بعـد انتصارهم فى اليـرموك وسيطرتـهم على معظم البلاد السوريـة ومحاصرة بين المقدس أن أرسل الـقائد لجيوش المسلميـن كتابًا إلى حامية المدينة وسكانها يدعوهم إلى الإسلام أو دفع الجـزية، وإذا رفضوا فليستعدوا للموت وللقتال.

أبطأ سكان بيت المقـدس بالرد على القائد أبى عبـيدة مما دفع به إلى التـقدم بجنوده لاحـتلال المدينة قـسراً. حـوصرت المدينة لمدة أربعـة أشهـر، عندها أدرك المدافعون عن المدينة عـجزهم عن حماية المدينة إلى الأبد، فقرّروا مـغادرتها وترك مصيرها لسكانها الأصليين ليتدبّروا شؤونهم بأنفسهم مع المسلمين المنتصرين.

خاف السكان من أن يؤدى، احتلال المدينـة عن طريق القوة إلى تدميرها أو إلى إعادة أعـدائهم السابقـين للعودة إليهـا (أى اليهـود). لذلك بادروا إلى دراسة الموقف فيمـا بينهم وقرّروا تشكيل لجنة تفاوض العرب المحاصـرين لمدينتهم لترتيب تسليمها شرط بقائهم فيها مع ممارسة حريتهم الدينية، وأن يعاملوا معاملة حسنة.

اجتمع أبو عـبيدة بن الجراح بوفد المدينة برئاسة البطريرك صـفرونيوس الذى تكلّم باسم الوفد وأعرب عن رغبة قومه فى الاستسلام والدخول فى طاعة الجيوش الإسلامية على أن يتم ذلك بحضور خليفة المسلمين وعلى يده بالذات.

استـمع أبو عبيدة إلى مـا قاله صفرونيـوس ونقل رأيه إلى الخليفة عـمر بن الخطاب ليحظى بموافقته، تشاور الخليفة عمر مع أهل المشورة من المسلمين وكانت الآراء مختلفة، منها:

رأى عثمان بن عـفان أن فى الاستجابة لرأى صفرونيـوس محاذير، يخشى معها على الخليفة أن يصيبه مكروه ونصح بعدم مغادرة الخليفة للمدينة.

رأى على بن طالب عكس ما قـاله عثمان بن عـفّان، ورأى فى تلبيـة رغبة أهل بيت المقـدس مـا يخـفف عن المسلمـين وطـأة المتـاعب التى تحـيط بهم فى حصارهم للمدينة.

مال عـمر بن الخطـاب لرأى على بن أبى طالب، وسار إلى بيت المـقدس،

على مطيةٍ كان يتعاقب الركوب عليها مع غلامه وأخذ معه من الزاد، حفنةً من الشعير وكميةً قليلة من التمر وقليلا من الزيت مع شىء من الماء.

وصل الخليفة أول الأمر إلى الجابية قرب دمشق وجلس طلبًا للراحة وفى هذه الأثناء رأى فرسانًا يتمايلون على صهوات خيولهم وبأيديهم الرماح والسيوف فاعتقد بأنهم يريدون الشر به أول الأمر. ثم تبيَّن فيما بعد بأنَّهم من بين المقدس، عرضوا على الخليفة البنود التى اتفقوا عليها مع أبى عبيدة وهذه أهمها:

* حضور الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه إلى المدينة واستلامها.

* ترك الحرية الدينية لأهلها.

* عدم تمكين اليهود من مسكانتهم بأى شكل.

وافق الخليفة عمر على ما سمعه من وفد بين المقدس وكتب لهذا الوفد رسالة بهذا المعنى، وهى الرسالة التى اشتهرت فى التاريخ باسم(العهدة العمرية) بدأها:

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبد الله، عمر، أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان....».

وشهد على ذلك كل من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن ابن عوف ومعاوية بن أبى سفيان. وكذلك كتب الوفد على أنفسهم عهدًا سلَّموه إلى الخليفة عمر..

بعد أن تبادل الخليفة مع وفد بيت المقدس العهود والمواثيق استأنف عمر سيره إلى بيت المقدس ليتسلَّمها من أهلها، وعندما أشرف على المدينة وقف ونظر إليها بتأمُّلٍ وعيناه تدمعان بدموع الشكر والاطمئنان لنصر الله،وأطلق صوته مكبرًا.. فإلى هذا البلد كان إسراء النبى فى رحلته القدسية.. ومن ذلك الوقت أصبح الجبل حيث وقف عمر وكبَّر وكبَّر معه المسلمون يُعرف باسم جبل المكبِّر وكان يسمى سابقًا جبل سكوبس.

وصل الخليفة إلى أسـوار بيت المقدس وكان ساعتـذاك دور خادمه أن يكون على الراحلة(أى الناقـة) ودور الخليفـة عمـر يقودها مما جـعل الأمر يلتـبس على البطريرك صفرونيوس الذى كـان ينتظره، فلم يعرف أى الرجلين هو الخليفة، لولا أن قيل له بأن الراجل هو الخليفة، مما أثار إعجـاب البطريرك وضاعف من احترامه لعمر، صاحب أكبر سلطة فى الدولة الإسلامية.

سار الخليـفة عمر وإلى جـانبه صفرونيـوس ينتقلان بين معـالم بين المقدس وأحيائها حتى إذا دخـلا كنيسة القيامة حان وقت الصلاة، أشـار صفرونيوس على الخليفة أن يؤدِّى صلاته حيث هو، رفض الخليفة ذلك وقال:

ـ لو أقمت الصلاة فى هذه الكنيسة لوضـع المسلمون من بعدى يدهم عليها بحجة أنَّنى صليت فـيها، ولستُ أرضى أن تُحرموا بسببى مـن معبدٍ أنتم به أحق وأولى، ثم انتحى الخليفة جانبًا بعيدًا من الكنيسة وأدَّى فيه الصلاة. (وصدق عمر فيما توقَّـعه، لأن المسلمين من بعده ما لبثـوا أن أقاموا فى نفس المكان الذى صلَّى فيه مسجدًا يعرف بالمسجد العمرى).

وأتى الخليفة إلى المكان الذى أسرى منه النبى محمد (ﷺ)، بحث عمر عن الصخرة ونظَّفها ممَّا عليها من ترابٍ وأمر بأن يشاد عليها مسجد يودِّى فيه المسلمون صلاتهم..

عاد عمر إلى مكان قـيادة الجيوش الإسلامية وألقى خطـبة فيهم وصلَّى بهم بعد أن أذَّن فى الجمع بلال الحـبشى مؤذِّن الرسول، وعاد الخليفـة إلى الحجاز... أرض الوحى والإيمـان والإسلام والأبطال الذين حـملوا رسالة الحـياة والحـضارة والسلام إلى ربوع العالم.

معركة القادسية

الموقعة التى فتحت الطريق أمام المسلمين إلى المدائن. . وغيَّرت مجرى التاريخ فجرى كما أراده الله. .

* القادسية كانت بابًا عبر منه الإسلام إلى العراق وفارس والشرق كلّه. .

بعدما أنهى خالد بن الوليد قتاله مع مسيلمة الكذَّاب وأخضع المرتدِّين عن الإسلام فى الجزيرة العربية. بعد وفاة الرسول محمد(ﷺ)، وفى مطلع خلافة أبى بكر الصدِّيق، العام 12 هـ. اتَّجه خالد بن الوليد ينساب على رمال الدهناء فى طريقه إلى العراق.

فى مدة قصيرة اجتاح خالد المناطق الواقعة غربى نهر الفرات والممتدة من رأس الخليج حتى الحيرة. وفى هذه الأثناء كانت جيوش أخرى قد اتجهت إلى بلاد الشام، وكان لها مع الروم هناك مواقع وانتصارات.

كان الفرس الموجودين فى العراق قد نظروا إلى انتصارات خالد بن الوليد نظرة قلق وخوف، وصمَّموا على الوقوف بوجه المسلمين وردِّهم عن العراق الذى كان خاضعًا لنفوذهم منذ زمن بعيد. .

بعث الخليفة أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يتوجَّه إلى الشام بنصف جيشه ليدعم جيوش المسلمين هناك ويتولَّى قيادتها، وبقى فى العراق المثنى بن حارثة الشيبانى على النصف الباقى.

سجَّل المثنى بن حارثة انتصاراً مهمًا على الفرس فى معركة البويب ممَّا زاد فى مخاوفهم وزاد قلقهم، وأشعرهم بما هم عليه من ضعف.

توفى أبو بكر الصدِّيق، وخلفه فى حكم المسلمين وإدارة شؤون الدولة الخليفة عمر بن الخطاب، فولَّى أمر العراق إلى أبى عبيد بن مسعود الثقفى، وأمدَّه بالرجال، وأوصاه الخليفة بالرويَّة وحسن التدبير وبالحزم.

كان أبو عبيد الثقفى مثلا للقائد الشجاع والجرىء، عبر نهر الفرات لملاقاة الفرس وقطع الجسر الذى عبَّر عليه بجيشه لئلا يفرَّ أحد وقاتل الفرس مستبسلا،

استعمل الفرس فى معركتهم الفيلة مما نفَّرت منها خيول المسلمين وأخافتها، قتل أبو عبيد فى هذه المعركة.

عاد المثنى ثانية لتولى قيادة المسلمين فى العراق واضطرَّ للانسحاب بالجيش، وبما أنّه لم يكن يوجد جسر على نهر الفرات فقد غرق الكثير من المسلمين فى النهر ونجا مَنْ نجا.. عندما علم الخليفة عمر بهذه الهزيمة بكى وقال:

- رحم الله أبا عبيد...

ومرةً أخرى قاد المثنى عمليات القتال فى العراق وكى لا يوقع الفرس هزيمة أخرى بالمسلمين انسحب المثنى بالجيش الإسلامى لحين استكمال حشوده..

اجتمع قادة الفرس وأصحاب الرأى فيهم وتدارسوا الموقف، وكانوا مازالوا مقفلين آذانهم وقلوبهم عن سماع صوت الإيمان والإسلام. وسابقًا كان ملكهم كسرى أبرويز قد مزَّق كتاب النبى محمد(ﷺ) الذى أرسله إليه رسول الله وأرسل إلى واليه على اليمن بأن يقبض على النبى ويحضره إليه.. كان الفرس ما زالوا على موقفهم من الدعوة الإسلامية ولم يحاولوا الإصغاء إلى كلمة الله.. كلمة الحق..

هذا بالإضافة إلى وجود مشاكل وتنافس على العرش فى فارس، وكان البحث عن إيجاد من يتسلم عرش الأكاسرة.. وانتهى البحث إلى العثور على شاب يدعى يَزْدَجَرْدْ بن شهريار بن كسرى أبرويز، نُصِّب امبراطوراً على بلاد الفرس، وكان عليه أن يواجه الزحف الإسلامى على بلاده حيث قضى أكثر من نصف عمره فاراً أمام الجيوش الإسلامية فرار أرنب أمام أسد..

كان الفرس وهم مجوس يؤمنون بعلم التنجيم، قد ذكروا لكسرى أبرويز أنَّ زوال ملكه سوف يكون على يدى ولد يُولد لبعض بنيه ويحمل علامة نقص فى جسمه، وفعلا كان يَزْدجرد يعانى من نقصٍ فى أحد وركيه.

بوجود ملك جديد للفرس، قويت عزيمتهم وبعثوا إلى كلٍّ الأقاليم يطلبون إليهم عدم طاعة العرب.

كان الخليفة عمر بن الخطاب قد علم بأنَّ الفرس قد وحَّدوا أمرهم على ملك نصَّبوه عليهم، فعزم الخليفة على الخروج إلى الفرس بنفسه، خرج من المدينة ودعا الناس للاستعداد للخروج ولقتال الفرس، وبدأ الاستعداد لذلك، غير أن الصحابة أشاروا على الخليفة بعدم قيادة الجيش بنفسه والبقاء فى المدينة يمدُّ الجيش بما يلزم من إمدادات، وحتى لا يعرِّض نفسه للخطر لأنّه لو ذهب، وأصيب سيعرِّض الدولة الإسلامية لخطر عظيم، فنزل الخليفة على رأيهم ووافق على البقاء فى المدينة، وتولية غيره إمارة الجيش .. وسأل عمر من كان معه:

ـ فمن ترى نبعث إلى العراق؟

وبينما الخليفة يستعرض الأسماء جاءه كتاب من سعد بن أبى وقَّاص، قرئ الكتاب وعلم القوم ما فيه وعمر يسألهم عمَّن يجعله قائدًا على الجيش المتَّجه إلى العراق، فأجاب عبد الرحمن بن عوف قائلا:

ـ قد وَجَدْتُه؟

ـ ومن هو؟

ـ الأسد فى براثنه، سعد بن أبى وقَّاص!!

والخليفة عمر بن الخطاب يعرف ما لسعد من شجاعة وإيمان، لذلك أرسل إلى سعد يدعوه للحضور وجعله أميرًا على الجيش الذى سيحارب الفرس فى العراق.

اختار الخليفة عمر بن الخطاب القائد الذى يوافقه ويناسبه سعد بن أبى وقاص وأخذ كل فى مجاله يُعدُّ للحرب إعدادًا هادئا.

غير أنَّ عمر بن الخطاب لا يترك ولاته بدون أن يزوِّدهم بالوصيَّة والنصيحة، كما وصَّى سعد بالصبر وخشية الله وبأن يتحبَّب إلى الناس ويختم وصيَّته إلى سعد بقوله:

ـ إن الله إذا أحبَّ عبدًا حبَّبه إلى الناس، وإذا أبغض عبدًا بغَّضه إليهم، فاعتبر منزلتك عند الله، بمنزلتك عند الناس.

سعد بن أبى وقَّاص، يمتُّ بصلة القرابة إلى النبى محمد(ﷺ)، حيث إنَّ والد سعد وهو مالك، المشهور بأبى وقَّاص كان ابن عم السيدة آمنة أم الرسول محمد(ﷺ). آمن سعد ودخل فى الإسلام وهو ابن17 عامًا، وكان قد شارك إلى جانب الرسول فى عدَّة غزوات منها، غزوة بدر وما بعدها. . . وكان بارعًا فى رمى السهام.

خرج سعد من المدينة فى 13شعبان عام14 هـ. أى تشرين أول 635م. قاصدًا العراق، وكان يستنفر من مرَّ به من القبائل، ويدعوهم للانضمام إلى جيشه، وقد لحقت به أعداد كثيرة من المقاتلين وكان المثنى ينتظره (ثم ما لبث المثنى بن حارثة الشيبانى أن توفى قبل أن يلقى سعدًا).

ومكث سعد يجمع، ويحشد، وينظِّم جيشه ويعيِّن القادة حتى أتمَّ ترتيب القيادة لهذا الجيش الذى بلغ حوالى 41 ألفاً، وفيهم:

20 ألفًا جيش سعد، 3 آلاف جيش المثنى الذى كان موجودًا فى العراق، جيوش إسلامية وصلت من الشام بقيادة هاشم بن عتبة وعددها 8 آلاف ومن القبائل جاء 5 آلاف مقاتل، وبهذا العدد يكون الرقم أصبح 41 ألف جندى. .

بقى سعد فى العراق بانتظار أوامر الخليفة عمر بالتقدم وبانتظار قدوم الفرس إليه، وكان الخليفة عمر فى المدينة على علم بكل تحركات جيش سعد بن أبى وقاص وتنقلاته يوميًا حيث كان سعد يكتب باستمرار إلى الخليفة يعلمه بكل شىء.

أمر الخليفة، سعدًا بأن يتقدَّم إلى القادسية وأن يأخذ الطرق على الفرس. وكان الخليفة يشجِّع جيوشه فى العراق باستمرار ولم تكن تفوته شاردة أو واردة وكان يحذِّر الجنود دومًا إلى الانتباه من خداع العدو، وكان يرسم لهم الخطط العسكرية ويذكر لهم موعد الانتقال من مكان إلى مكان، وكما سبق القول، كان الخليفة عمر قد حدَّد لسعد موقع القادسية كمكان للمعركة، وأرسل له خطَّة للعمل وللتحرك ضد الفرس إذا ما قدموا للقادسية.

أعدَّ سعد الخطَّة للمعركة، وكانت ترتكز على ما يلى:

ـ اختيار مكان المعركة بحيث لا يتورَّط جيش المسلمين فى القتال على أرض لم يألفها ولها مخاطرها، كما يكون له خطٌّ اتصال مفتوح على الصحراء التى هى ملاذه، حيث إذا ما رأى نفسه في وضع حرج يكون بمقدوره الانسحاب.

ـ القضاء على الفرس قضاء تامًا.

من أجل ذلك اختار سعد وبالتشاور مع الخليفة عمر فى المدينة، اختار القادسية مكانًا للمعركة التى وصلها فى آذار 636م، أى بعد مسيرة سبعة أشهر من المدينة.

وانتظر المسلمون فى القادسية الفرس كى يأتوا إليهم واستدرجوهم إلى هذا المكان.. عمد سعد إلى شن الغارات على نواحى العراق من شماله إلى جنوبه متَّخذًا من القادسية قاعدة ينطلق منها، وكثيرًا ما كان يغنم من هذه الغارات ما يلزم جيشه من تموين (أطعمة، مواشى، حبوب وتمور) وهذا ما يعرف باسم الاستنزاف العسكرى فى مفهومنا اليوم وبدأ الأهالى يشتكون إلى ملكهم الفارسى يزدجرد من ذلك ويطلبون حمايته من المسلمين، وأخذ يزدجرد يستحثُّ قائده رستم على التقدم إلى القادسية.

كان الفرس يعملون للمعركة ويعدُّون لها كل ما يلزم من عتاد وسلاح وأفيال وأعداد كبيرة من الجنود وأكثر رجالاتهم حكمة وحنكة فى الرأى وفى الحرب.

وأمام هؤلاء جميعًا كان سعد بجيشه، كان سعد بانتظاره وهو الأسد المتواضع، وأحد السابقين إلى الإسلام، والذى كانت دعوته مستجابة، وحول ذلك نقول: بأن النبى محمدًا(ﷺ) كان قد زار مرَّة سعد بن أبى وقَّاص أثناء مرضٍ ألمَّ به ودعا له قائلا:

ـ اللهمَّ أصح قلبه وجسمه، واكشف سقمه وأجب دعوته.

وفى رواية أخرى قال:

ـ اللهم سدِّد سهمه، وأجب دعوته، وحبِّبه إلى عبادك.

ولهذا كان الكثيـر من المسلمين يتّقون إغضابه خـوفًا من دعوته عليهم، لأن دعوته كـانت تستجـاب، ولو كانت كل النفـوس مثل نفس سعـد بن أبى وقاص لعاش الناس فى حبٍ ووئام ومودة وإخاء، فقد كان متعبدًا، بشّره الله بالجنة ثلاث مرات.

أوصى الخليفة عـمر بن الخطاب، سعدًا أنه إذا هزم الفرس عليه بملاحـقتهم إلى عاصمتهم المدائن.

من القادسية أرسل سعد وفودًا ورسائل إلى أعدائه قبل وقوع المعركة...

أرسل إلى الملك يزدجرد يدعوه إلى الإسلام غير أنّ هذا كان سيئ الأدب مع الوفد فقد هددهم بالقتل وقال لهم:

- لولا أنَّ الرسل لا تُقتَل لقتلتكم.. لا شىء عندى ثم قال لأصحابه:

- ائتونى بوقر من تراب..

فأتوا به، قال:

- احـملوه على أشرف هؤلاء ثم سـوقـوه حتى يخـرج من باب المدائن.. أرجعـوا إلى صاحبكم فأعلمـوه أنى مرسل إليكم رستم حـتى يدفنكم ويدفنه فى خندق القادسية وينكِّل به وبكم من بعد ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم فى أنفسكم بأشدّ ممَّا نالكم من سابور... مَنْ أشرفكم؟

قال عاصم بن عمرو وكان من الوفد المسلم:

- أنا أشرفهم.. أنا سيِّد هؤلاء فحملنيه! قال يزدجرد:

- أكذلك؟

قالوا:

- نعم...

فحمله عـاصم على عنقه فخرج به مـع سائر الوفد وانطلقوا مـسرعين إلى

القادسيــة (أى حمل عاصم التراب وســار حتى وصل القادسيــة). وعندما وصلـ وقابلوا سعداً قال رئيس الوفد، عاصم بن عمرو:

ـ أبشر، فوالله، لقد أعطانا الله مقاليد الحكم.

تشاءم أصحاب يزدجرد مما فـعل ملكهم، ورأوا فيه أنّه أعطى المسلمين تراب فارس، وجاء رستم من معسكره ليسأل عن يزدجرد عما كان من أمر الوفد فقال له الملك:

ـ ماكنت أرى أنَّ فى العـرب مثل رجال رأيتهم دخلوا علىَّ ومـا أنتم بأعقل منهم ولا أحسن جوابًا منهم...

وأخبره بحديثهم، ثم قال يزدجرد:

ـ لقد صدقنى القـوم، ولقد وعدوا أمرًا ليدركنه أو ليـموتن عليه، على أنى قد وجـدت أفضلهم أحمقـهم.. لمَّا ذكروا الجزية أعطيـته ترابًا فحـمله على رأسه فخرج ولو شاء اتقى بغيره، وأنا لا أعلم.

لقد سمع رستم من الملك هذا الكلام وفطن لما فات الملك، فقال له:

ـ أيها الملك إنَّه لأعقلهم.

أراد رستم أن يستردَّ التراب الذى حمله عاصم بن عمرو فبعث بأحد فرسانه وراء الوفد وقال للملك:

ـ إن أدركـهم فـرسـاننا تلافـينا أرضنـا وإن أعجـزوه سـلبكم الله أرضكم وأبناءكم...

وعاد فرسان رستم خائبين فقال رستم:

ـ ذهب القوم بأرضكم غير ذى شك.. ذهب القوم بمفاتيح أرضنا..

وأخذ يزدجرد يستـحث رستم للتقدم إلى القادسية ورستم كـان يتمهَّل عسى أن يجد مخرجًا لهذه الحرب، لأن الخوف كـان قد ملأ نفسه، ولكن فى آخر الأمر وجد نفسه مـضطرًا للانصياع والمسير إلى القادسيـة لملاقاة المسلمين، وهناك أرسل

رستم إلى سـعد بن أبى وقاص بأن يرسل إليه رجـلا يكلّمه، فأرسل إليـه سعد، المغيرة بن شعبة، وصل المغيرة إلى رستم وحدَّثه بمثل ما تحدَّث به سابقًا الوفد الذى حضر الملك يزدجرد، وانتهى الحديث إلى:

الإسلام، أو الجزية، أو الحرب. . .

عـزَّ على رستم أن يسـمع مـثل هذا الكلام خـاصة وأنّه من أبطال الفـرس وأشدَّهم منازلة فى المعـارك، غضب رستم مما سمـعه من المغيرة ولكن رسـتم كان يخاف من هذه الحرب بناءً على حلمٍ رآه فى منامه، لم يعط رسـتم جوابًا للمغيرة وطلب من سعـد ثانية أن يبعـث برجل آخر ليحـدِّثه ويفاوضه فى الأمـر، وسمع رستم نفس الجواب(الإسلام، الجزية، أو الحرب). . .

وللمـرة الثانيـة، لم يعط رستـم جوابًا، وطلب رجـلا ثالثًا. . وكـان نفس الجواب الذى سمعه رستم من المغيرة فى المرَّة الأولى. . .

ولم يكن من عادة العـرب المسلمين إمهال عدوِّهم أكـثر من ثلاثة أيامٍ وهى عادة درجوا عليها منذ أيَّام النبى محـمد (ﷺ)، يكون بعدها أحد أمرين: الصلح أو الحرب. . .

واستقر رأى رستم على القتال، فبعث إلى سعد يقول:

ـ إمَّا أن تعبروا النهر إلينا، وإمَّا نعبره رليكم. .

لم يفكِّر سعد بعبور النهر، لأنَّ العرب لم يكونوا يجيدون السباحة، كما أنّ ذكـرى موقـعة الجـسر لا تزال مـاثلة فى أذهانهم، ولذلـك بقى سعـد فى مكانه مطمئنًا، فالنهر أمامه، والصحراء وراءه. . .

لم يقف رستم فى مكانه، وكان لا بدَّ له من عبور النهر والتقدُّم حفاظا على هيبة الفرس وسمعتهم.

كان سعد بن أبى وقاص قد أصيب بدمامل فى فخذيه وبأوجاع عرق الأنسر منعته من ركوب الخـيل والنزول إلى ساحة المعركة فوقف فـوق قصر هناك يراقب

المعركة ويشرف على جيشه وإلى جانبه زوجته الجديدة سلمى (زوجته القائد المثنى بن حارثة الشيبانى سابقًا).

كان يزدجرد يتابع المعركة ساعة بساعة حيث وضع نظامًا لوصول الأخبار، فوضع رجلا على باب الإيوان ووضع آخر حيث يسمعه الأول ثم ثالثًا ورابعًا وهكذا حتى القادسية، وينتقل الخبر من واحد إلى آخر حتى يصل إلى الملك يزدجرد.

وأوَّل خبر وصله كان مرض سعد بن أبى وقاص.

وعلم المسلمون بأن سعدًا لم يشترك فى المعركة، اتهمه البعض بالضعف فحزَّ ذلك فى نفسه وقال لبعض من حوله:

ـ احملونى وأشرفوا بى على الناس..

وهكذا كان سعد يشرف على المعركة من أعلى قصرٍ هناك، وعندما علم المسلمون ما به من مرض عذروه.

وأخيرًا وقعت معركة القادسية..

وكان الفرس بأعداد تجاوزت 120 ألفًا يتبعهم80 ألفًا من العبيد.

كانت أرض القادسية منبسطة يحيط بها نهر العتيق (أحد فروع الفرات) ومستنقعات وخندق يسمًّى خندق سابور..

وكان سعد يبعث إلى الخليفة فى المدينة يوميًا يزوِّده بأخبار المعركة، وكان عمر يخرج من المدينة كل يوم ويجلس على طريق العراق ينتظر الأخبار...

وقعت معركة القادسية... وصادف أن رأت سلمى زوجة سعد بعض الجنود المسلمين يتراجعون منهزمين فى أول القتال، فصاحت بهم:

ـ وامثنياه، ولا مثنى للخيل اليوم..!!

غضب سعد، وضربها بكفِّه، وفوجئت بذلك خاصةً أنَّ ذلك تمَّ أمام زوجة سعد السابقة وأم أولاده مما زاد فى عنادها وقالت له:

ـ أغيرةً وجبنًا؟

فأجابها:

ـ إذا لم تعذرينى أنت، فمن يعذرنى من الناس..!!

كان المسلمون يقاتلون فى سبيل نشر الدين والفرس يقاتلون دفاعًا عن ملك وعرش، وكان سعد قد أرسل أوامره إلى جنوده فقال:

ـ الزموا صفوفكم، فإذا صلَّيت الظهر فإنِّى مكبِّر، فإذا كبَّرت الأولى، فكبِّروا واستعدوا... وإذا كبَّرت الثانية، فكبِّروا والبسوا عدَّتكم.. وإذا كبَّرت الثالثة، فكبِّروا ولينشِّط فرسانكم الناس ليبرزوا ويطاردوا...

وإذا كبَّرت الرابعة، فازحفوا حتى تخالطوا عدوَّكم.. وقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم..

ارتفع صوت المؤذن يؤذن لصلاة الظهر. وبعدما انتهت الصلاة ارتفع صوت سعد بالتكبيرة الأولى فكبَّر الجند من خلفه وأسرع كل جندى إلى صفِّه، ثم كبَّر الثانية، فتهيَّأ الرجال للقتال، ثم كبَّر الثالثة فخرج أحد الفرسان المسلمين إلى ساحة المعركة وخرج إليه جندى من الفرس فأسره وسلَّمه إلى سعد..

وبينما المسلمون بانتظار التكبيرة الرابعة، أخذ أحد الجنود الفرس يرمى بسهامه نحو المسلمين، كبَّر سعد التكبيرة الرابعة..

والتحم الجيشان..

ونشطت أفيال الفرس وكانت خيل المسلمين تخافها وتفرُّ من أمامها.

أظهر المسلمون بطولة أدهشت سعد نفسه، وكانت الفيلة تهجم على المسلمين فتبيدهم بأرجلها وتضربهم بخراطيمها، تقدَّم أبطال بنو تميم المسلمون بعملية فدائية لإخراج الفيلة من المعركة وجعلوا لكل فيل فريقًا يرمى ركبانه بالنبال لإلهائهم فى حين يتسلَّل آخرون إلى خلف الفيل ويقطعون أحزمة الصناديق التى على ظهورها، وكان كلَّما سقط صندوق من فوق فيل قتل المسلمون طاقمه.

انتهى اليــوم الأول من القتال العنيــف، وكان اليوم الثــانى. . لملم المسلمون قتــلاهم وجرحاهم. . وبــدأت طلائع جيش خالد بن الوليــد تعود من الشــام بعد انتهاء معركة اليرموك وكان على رأسهم هاشم بن عتبة. .

عادت الفــيلة إلى المعركة بعــد إصلاح صناديقــها لجأ المسلمــون إلى طريقة جديدة لإرهاب خــيول الفــرس وهى أن ألبسوا عــدداً من الإبل براقع ذات أشكال مخيفة مماً أوقــعت الفزع لدى خيول الفرس، وبقيت الفيلة تتــقدمً وتشيع الفوضى والاضطراب بين صفوف المسلمين. .

وبدأت كفَّة المسلمين ترجح فى المعركة. . .

وكان يوم ثالث من القتال المرير. . وأصبحت الأرض حمراء مما تشرَّبت من الدماء. . واستمرت فرق الجيش القادم من الشام بالوصول. . أمام هذا الواقع وكى ينهى المسلمون المعركة بسرعة. . فكَّروا بأمر الفيلة. . وبطريقة لإخراجها نهائيًا من المعركة بالقضاء عــليها. . وذلك بضرب عيونها وخراطيمــها، نجحت هذه الطريقة وتساقط المقاتلون من على ظهورها وأخــذت الفيلة تدوس بأرجلها من وقع، وشاع الاضطراب فى صفوف الفــرس بعد هروب الفيلة، وواصل الفرس القــتال. . وقام المسلمون بحركــة التفاف على الفرس وكــان كلا الجانبين قد نال مــنه التعب وتقدَّم المسلمــون من خيــمة رســتم ونشطت الرياح وعصــفت بالمظلة فوق رأس رســتم، وشوهد فى النهر على بغل يجتازه لحق به أحد المسلمين وضربه برمحه فإذا برستم يسقط عن ظهره وقد أصابه الرمح أثناء محاولته الهرب بعد ما تبين نصر المسلمين، حاول رستم الفرار والنجاة رغم إصــابته، غير أن أحد الجنود ويدعى هلالا لحق به وجرَّه برجليه من النهر وأخرجه إلى البر ثم ضربه بسيفه. .

وانتصر المسلمون. . .

وانهزمت جيوش يزدجرد شرَّ هزيمــة، وانطلقت فلولهم فى الصحراء موليةً الأدبار. أمر سعــد بجمع الأسلاب والغنائم وقسَّــمها كما أمــر الله وبعث بالخمس إلى الخليفة عمر بن الخطاب فى المدينة.

هذه هى موقـعة القادسية، قـتل من الفرس 50 ألفًا ومن المسـلمين 8500 جندى وكانت مـن معارك التـاريخ الحاسمـة. . انتصـرت فيهـا القلة المؤمنة على الحشود الكثيرة. جاءت معركة القادسية بعد معركة اليرموك بأربعين يومًا.

فُتح العـراق هنا. . وفتح الشـام هناك. . وانتهت مـعركـة القادسـية، التى استمرت ثلاثة أيام مـن القتال. . ولم ير بعدها الفرس نصراً، وتوفى قـائد معركة القادسـية عن عمر يناهز الثـمانين عامًا، وقـبل وفاته طلب ثوبًا قديمًا لـه كان قد خبأه وقال:

ـ كفنونى فى هذا، فإنى لقيت فيه المشركين يوم غزوة بدر، وإنما خبأته لهذا اليوم. . دفن سعد فى مكان يسمى البقيع.

معركة حطين

منذ ظهـور الإسلام وانتـشاره خارج الجـزيرة العربيـة تقلّص نفـوذ الوجود المسيحى الأوربى فى الشرق وأحـسَّت الكنيسة بخسارة كبيرة، خـاصة خسارة بلاد الشام ومـصر، ولم تستطع الكـنيسة المسـيحيـة فى روما أن تقف فى وجه التـيَّار الإسلامى لأسباب عديدة منها:

* تفكك الدول الأوربية المسيحية.

* استمرار الحماس الدينى الإسلامى وانطلاقه.

ومنذ حوالى القرن العـاشر للميلاد، بدأ الوضع يتغيـر، حيث بدأ المسلمون فى التخلّـى عن روح البساطة واتجـهوا إلى حـياة الدعة والتـرف، والتى أدت بهم بدورها إلى الانحلال والضعف، كما أدَّت الأطماع السيـاسية والصراعات المذهبية بين المسلمين، إلى انقـسام الدولة العبـاسية الكبرى عـلى نفسها، وقـام بدلا منها ثلاث دويلات بدلا من الخليـفة العبـاسى الواحد فى بغـداد، وكثُرت المصـادمات والصراعات بينهم.

فى هذا الوقت وفى هذه الأجواء تحـركت أوربا باتجاه الشرق، وكانـت فترة حوالى 200 عام من الصراع والحروب، شنّتـها أوربا على بلاد الشرق الإسلامى، وهذه الحروب سمِّيت بالحروب الصليبية.

حروب اتخـذت شكل صراع ضـارٍ تعددت أسبـابه وتنوعت، وكان شـعار مقـاتليه إشارة الصليب على صـدورهم وعلى دروعهم، ولذلك سُمِّـيت بالحروب الصليبية.

لماذا كانت هذه الحروب؟ وما هى أسبابها؟

لقد تعدددت الأسباب التى أدت إلى هذه الحروب وأهمها:

* تدهور الأحوال الزراعية فى أوربا، وانتشار المجاعة.

* تكررت الحروب الداخلية بين ملوك وأمراء أوربا.

* حلول كوارث طبيعية وأوبئة.

* ظلم رجال الإقطاع لطبقة الفلاحين والعمال، حيث كان المجتمع يتكوّن من ثلاث طبقات(طبقة رجال الدين، طبقة النبلاء، طبقة الفلاحين). ونتيجه ظروف حياة الفلاحين والعبيد القاسية من فقر وظلم وجهل وعبودية، اندفع هؤلاء وراء هذه الحروب من أجل التخلص من العبودية ومن الظلم وحياة البؤس والشقاء.

* دوافع سياسية، ذلك أن كثيراً من الأوربيين الذين اشتركوا فى هذه الحروب رغبوا فى تحقيق مكاسب سياسية تتمثل لدى طبقة النبلاء فى توطيد نفوذهم بين أفراد الشعب.

الانتقام من الأتراك والسلاجقة والذين كانوا قد سيطروا على أماكن كثيرة احتلوها من البيزنطيين.

* دوافع اقتصادية، تتمثل برغبة المدن الإيطالية بالاستيلاء على تجارة الشرق والحصول على امتيازات اقتصادية فى المدن الساحلية، إضافة إلى الرغبة فى الحصول على سلع الترف الموجودة فى الشرق، ورغبة رجال الإقطاع الأوربيين فى امتلاك الأراضى فيما وراء البحار.

ومما يثبت الطمع فى الغنى والمال هو ما قام به بعضهم من نهب البلاد المسيحية التى مرُّوا بها فى طريقهم إلى الشرق وإنزال أكبر الأذى بإخوانهم المسيحيين.

* دوافع الدينية، وتتمثَّل فى اتجاهات عدة منها: رغبة الفرسان المسيحيين الذين كانوا ينهبون الكنائس والأديرة فى بلادهم إلى الغفران وخلاص الروح عن طريق الحج بالرغم من أعمالهم السابقة. وجاءت الدعوة للحروب الصليبية، ومنها يحققون رغبتهم بحج الأماكن المقدسة فى فلسطين باعتباره من الطقوس المسيحية المقدسة وله أهميته الخاصة.

تبنَّت البابوية فى روما وهى أعلى سلطة دينية مسيحية فى العالم فكرة إنقاذ

الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين، حيث قام البابا بإرسال الرسائل إلى ملوك وأمراء أوربا يحثَّهم للاشتراك فى هذه الحرب ودعاهم فيها إلى تخليص الكنيسة الشرقية فى بيت المقدس من أيدى المسلمين، ووعدهم بالثواب على محاربة الكفار وقال لهم:

ـ قاتلوا بجرأة، لكى تنالوا فى السماء مجداً.. ولاقى هذا النداء آذانًا صاغية لدى الملوك والفرسان والأعيان..

ومن الأسباب الدينية كذلك، هو انصراف البابوية إلى تضليل الرأى العام المسيحى لدى الطبقة العامة، طبقة الفلاحين والعبيد حيث وعدوهم بشيئين عزيزين عليهم هما:

الأرض ، والحرية..

كما رغب البابا فى إنشاء دولة دينية فى الشرق. هذه مجمل الأسباب التى دفعت بالأوربيين إلى الاشتراك فى هذه الحروب...

هذا هو الوضع الأوربى. فكيف كان الواقع فى أقطار الشرق الإسلامى؟

كانت بلاد الشرق الذى طالته الحروب الصليبية مقسَّمة بين أمراء ضعاف، ضئيلى الشأن، أهم ما يُشغل بالهم هو الاحتفاظ بمراكزهم، والتغلب على منافسيهم فى المنطقة وكانوا يتآمرون ضد بعضهم البعض غير عابئين بما يُحاك ضدهم وما يُدبَّر من حرب ويُعدُّ من جيوش.. وقد كانت أقوى دولة إسلامية فى ذلك الوقت هى دولة السلاجقة التى هيمنت على بغداد عاصمة الخلافة العباسية ولم يكن فى يد العباسيين أيَّة سلطة.

حرب ضد الإسلام..

أخذ الغرب المسيحى يوجِّه ضرباته الصليبية ضد المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدهم(فى الأندلس، فى صقلية، شمال أفريقيا، مصر، وبلاد الشام) بل حاول الصليبيون ضرب مقام الحرمين الشريفين فى الحجاز.

أضاع المسلمون فرصًا كثيرة، كان باستطاعتهم التصدى للصليبيين ودحرهم

عن البلاد الإسلامية منذ الحملة الأولى، غير أن الخلافات التى كانت متحكمة بينهم جعلتهم لقمة سائغة فى أفواه الصليبيين، وبدأت الحروب الصليبية.

اتخذ الأوربيون الدين ستاراً لحملاتهم هذه، ووجه الغرابة فى الأمر أنَّ الذين وقفوا فى وجههم عناصر غير عربية، اعتنقوا الإسلام وتحمَّسوا له وحلَّوا محل العرب فى حمل الراية، راية الجهاد للدفاع عن الإسلام وأهله وأرضه، ومن هؤلاء: (الترك، الأكراد، التركمان).

أدرك المسلمون ولكن بعد فوات الأوان أنَّ الفرقة والنزاعات فيما بينهم هى السبب فيما حلَّ بالبلاد وبالعباد وأنّه لا حلَّ لردِّ الغزاة إلا بتحقيق جبهة متحدة.

والواقع أن فكرة إنشاء جبهة متحدة ولدت فى الموصل، ومن هناك بدأت زمن حاكم الموصل عماد الدين إنكى الذى ضمَّ إليه حلب عام 1128 م. وكانت الخطوة الأولى على طريق وحدة الصف.

وبدأت الأحداث تتوالى، واستطاع عماد الدين زنكى انتزاع الرها من أيدى الصليبيين عام 1144م. وكانت الرها أول إمارة صليبية أنشأوها عند قدومهم إلى الشرق عام 1098 م. ويعتبر سقوطها نذيراً بتداعى السيطرة الصليبية.

وأخذ الصراع مع الصليبيين يثور أحيانًا ويهدأ أحيانًا، وفى أوقات الصلح والسلم، يسود الهدوء وتنشط التجارة وتنتقل القوافل من جانب إلى آخر وربما تبادل الجانبان الزيارات.

عام 1146م. استشهد عماد الدين زنكى فخلفه ابنه نور الدين محمود فى حلب، وسار على سياسة والده، حيث نجح عام 1154 م فى الاستيلاء على الشام.

ولكى تكتمل دائرة الحصار على الصليبيين كان لابد له من السيطرة على مصر، التى كانت بأيدى الدولة الفاطمية، الضعيفة، وكان فيها نفوذ الوزراء يتزايد على سلطة الخليفة الفاطمى واشتد التنافس بين الطامعين بمنصب الوزراء، حتى كان بعض الوزراء يستعين بالصليبيين واستعان البعض الآخر بنور الدين محمود زنكى.

عام 1163 م، قام ملك بيت المقـدس الصليبى واسمه عـامورى الأول بغزو مصر ثم تكررت هجماته، وفى الوقت ذاته أخذ نور الدين يتصدَّى له ويرسل إلى مصر الحـملة تلو الحملة. . وكانت حمـلاته هذه يقودها أسد الدين شـيركوه وهو كردى الأصل وكان يصاحبه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب.

أخيرًا، عام 1168 انتهـى الصراع بفوز جـيوش نور الدين زنـكى وصارت الجبهة موحَّدة من الفرات إلى النيل.

تسارعت الأحداث، وخلف صـلاح الدين عمَّه شيركوه فى منصـبيه(الوزير الأول لدى الخليفة الفاطمى، وقائد جيش سيِّده نور الدين فى مصر).

توفى الخليفـة الفاطمى عام 1171م. وتوفى نور الدين مـحمود زنـكى عام 1174م. وبذلك أصبح صـلاح الدين سيِّد نفـسه وبيده التـحكم بالموقف. وأسرع بتقوية الجبهة الإسلامية التى تضعضعت بعد وفاة نور الدين.

بدأ صلاح الدين يتـصدَّى للصليبيـين فى جرأة وفى حزم بعدمـا اطمأنَّ إلى تثبـيت أقدامـه فى السلطة وتنظيم شـؤون دولته. وأخـذ يعدُّ العدَّة لإنـزال ضربة حاسمة ضد الصليبيين.

واشتـهر بالتـقوى والورع، كـان يؤدِّى صلاته فى أوقاتـها، محبًا لسـماع الأحاديث الدينية، عُرف بشدة بأسه، وقوة مراسه فى الحروب وتحلِّيه بالصبر، كان كريمًا يُكرم من يدخل عليه ويحسن استقباله وإن كان غير مسلم.

أعلن صـلاح الدين الجهـاد المقدَّس وأرسل إلى كـافة المناطق يطلـب إرسال الجنود والاستعداد لحـرب فاصلة مع الصليبيين، فجـاءته من كل ناحية. من حلب ومن الجزيرة الفراتية، وديار بكر ومن الموصل.

وكانت مـوقعة حطيـن. . من المواقع الفاصلة فى التـاريخ. كانت فى وقت صار فيه صلاح الدين أقوى حاكم فى العـالم الإسلامى، حيث وجَّه جميع موارد الدولة إلى النضال ضد الصليبيين. .

وكانت مملكة بيت المقدس هدفـه الأول. . وكان التنازع والخلاف قد بدأ بين الصليبيين حول الألقاب وحول الأراضى، بدأوا يكيدون لبعضهم.

تطورت الأحداث، ونقض حاكم الكرك الصليبى معاهدة الهدنة الموقعة بين صلاح الدين وبين مملكة بيت المقدس، وذلك عندما نهب قافلة مسلحة كانت فيها شقيقة صلاح الدين، طالب صلاح الدين ملك بيت المقدس واسمه(جى دى لوزينيان) بمعاقبة صاحب الكرك والتعويض والإفراج عن الأسرى، غير أن لوزينيان لم ينفِّذ طلب صلاح الدين بسبب خوفه من أمير الكرك الذى كان يمتلئ حقداً وكرهًا للمسلمين. . ممَّا دفع بصلاح الدين إلى اجتياح الكرك. .

وبدأ الجهاد ضد الصليبيين وبدأت الحشود الإسلامية تتجمَّع.

تقدَّم صلاح الدين واستولى على طبرية ثم ضرب حصاراً حول مواقع الصليبيين بجوار قرية حطين وبدأت المعركة. . فى توقيت اختاره صلاح الدين، غير ملائم للصليبيين، كان يومًا حاراً وفى مكان لا ماء فيه، نظر صلاح الدين فوجد أن الريح تتجه نحو الصليبيين فأوقد النار فى الأعشاب والشجيرات فى المنطقة واتجهت النيران بدخانها ولهيبها باتجاه الصليبيين، وزادت إلى حرِّ الجو حرارة اللهب وإلى شدَّة عطش الجنود رغبةٌ أكثر إلى الماء. . ودارت معركة استمرت سبع ساعات. .

فى هذه المعركة حشد الصليبيون زهرة فرسانهم. . وانتهى أمر الصليبيين بكارثة ووقع معظم الجيش الصليبى بين قتيل وجريح وأسير. . ووقع فى أسر صلاح الدين ملك بيت المقدس(جى دى لوزينيان) وكثيرون من البارونات.

حفظ صلاح الدين حياة الأسرى باستثناء بعض الفرسان، أما حاكم الكرك، ناقض الهدنة مع صلاح الدين، والذى كثيراً ما كان يتعرض للقوافل الإسلامية المتجهة أو العائدة من الحج، فقد قطع صلاح الدين رأسه.

لم تكن حطِّين مجرد هزيمة وقعت بالصليبيين، إنَّما كانت كارثة حلَّت بالصليبيين بوجه عام وبمملكة بيت المقدس بوجه خاص. وكانت بداية نهاية الكيان الصليبى فى الشرق. .

يوم حطين. .

كان عـرسًا.. مهرجـانًا.. فيه غرّدت الفـرسان بين السيوف اللامـعة تحت أشـعة الشـمس.. وطيف صـلاح الدين كان يخـيِّم على المعـركة.. بين السـهل والجبل.. أما الصليبيون.. فأقـزام، ظلال سوداء، تمضى ذليلة.. محنية الهامات فى الأفق!

يوم حطين..

كان ملحمة.. كثرت فيهـا الدماء وذاق الصليبيون مرًّ العطش.. والغبار.. ولهيب النيران.. يـوم عمًّ فيه الرعب وكثر الموت، وكل المقـاتلين فى حطين ذاقوا الأهوال..

انتصر صلاح الدين وجنى ثمار انتصـاره غاليًا.. ارتفعت معنويات المسلمين بعد حطين وزعزعت الوجود الصليبى فى الشرق..

انتصـار صلاح فى حطين فتح أمامـه الطريق لاسترداد المدن الساحليـة كلها الواقعة جنوبى طرابلس، وأسرع صلاح الدين مـستغلا الموقف وذلك ليقطع الصلة بين الصليبيين فى بلاد الشام وبين أوربا فاحتل عكا وبيروت وصيدا ويافا وقيسارية وعسقلان.

بعد ذلك اتجـه صلاح الدين إلى الداخل فاسـتولى على العـديد من القلاع والحـصون والمدن التى كـانت بحوزة الصلـيبـيين، حـتى جاء دور بيت المقـدس، واضطرت إلى الاستسلام بعد حصار، فسلَّمتها حاميتها الصغيرة فى 12 أكتوبر عام 1187م. وبرهن صـلاح الدين على أنه رجل دولة حكـيم وعادل فـعـامل سكان القدس معاملة أرق وأخف بكثير مما عـاملهم الغزاة الصليبيون، لم يبطش بسكانها ولم يدمِّرها وسـمح للسكان المسيـحيين بمغـادرتها بعد دفع الـفدية(عن كل رجل 10دنانير ذهبية، وعن المرأة 5 دنانير ذهبية وعن الطفل دينار ذهبى واحد) وبقى 15 ألف إنسان لم يدفعوا الفدية فبيعوا عبيدًا..

وهكذا أصبحت مملكة بيت المقدس كلها بيـد صلاح الدين عدا مدينتى صور وطرابلس وبضعة حصـون صغيرة، وعندما سمع البابـا أوربان الثامن بسقوط بيت المقدس توفى من أثر الصدمة..

لقد فشلت الحـروب الصليبية، ولـم تستطع أن تحتـفظ بالبلاد التى احتلوها، وتغيـرت أمور كثيـرة بعد انتهـاء هذه الحروب، حيث نشـأت لدى الأوربيين روح استعمـارية، وعظم شأن البابوات فى روما، فهم الذين بشَّروا بالحـروب الصليبية ودعوا لها وقاموا بالإنفاق عليها.

كما أن الاتصـال مع الشرق صحَّح كثيرًا مـن المفاهيم والأفكار المشوَّهة عن الإسلام وعن المسلمين التى كان يُلحقها رجال الكنيسة فى أوربا عمدًا عن الإسلام وعن سيرة الرسول وعن أخلاق المسلمين وطباعهم ومستواهم الحضارى..

هذه الحروب التى دامت من العام 1097م، ولم تنته إلاَّ فى العام 1291م أى بعد معركة حطين بـ104 سنوات، حيث كانت نهاية الصلـيبيين على يد ثلاثة من سلاطيـن المماليك فى مـصر وهم الظاهر بيـبرس، قلاوون، والأشـرف خليل بن قلاون ـ وبذلك، أسدل الستار على آخر فصل من فصول الحروب الصليبية، بعدما كلَّفت أوروبا كثيرًا حيث هلك مئات الألوف من الناس، ودمِّرت المدن والقرى فى آسيا الصغرى وفى سوريا ولبنان وفلسطين ومصر.

انتهت تلك الحروب عندمـا انتصر صلاح الدين عليهم فى مـعركة حطين، وانهزم أولئك المحـاربون الذين خرجوا من أوربا حـاملين علامـة الصليب وتحوَّلوا إلى لصـوص وسفَّـاكى دماء.. تركـوا محـاصيلهم واندفـعوا وراء راهب حـافى القـدمين (هو بطرس الـناسك)، هربوا من ظلم رجال الإقـطاع عندهم قاصـدين الشرق وفى مخيلتهم حلم الثراء، وخرَّبوا مدينة بيزنطة المسيحية بدون رحمة.

لم تكن مجرد حـرب.. كانت صدامًا بين الشرق والغـرب انتصرت حطين وعاد الشرق إلى أبنائه.

معركة عين جالوت

عين جالوت..

اسم لموقع فى فلسطين جرت فيه معركة مهمّة وفاصلة بين المسلمين والمغول..

لماذا وقعت هذه المعركة، وكيف سارت الأحداث وما نتج عنها؟

ومن هم المغول؟

أسئلة كثيرة يطرحها الإنسان أمام حادثة بل أحداث عجيبة وغريبة قام بها المغول...

لقد اعتبر التاريخ جميع الحروب التى قام بها المغول خلال توسعهم منطلقين من بلادهم منغوليا بأنها وصمة عارٍ فى جبين الإنسانية..

إن تاريخ الحروب التى شنَّها المغول على العالم فى ذلك العهد، على أوربا وعلى الشرق الأوسط وعلى بلدان أواسط القارة الآسيوية تعتبر من أوسع وأضخم الحروب فى التاريخ وأكثرها دموية ووحشية وعنف. خرج المغول من ديارهم حاملين لواء الهمجية والتدمير وسفك الدماء.. مِنْ منغوليا.. بلاد المغول.. أو التتار، جاءوا !! منطقة واسعة، باردة، تكتسحها الرياح الثلجية، أرضها صلبة مجدبة، من هذه الأرض الكئيبة، الحزينة الجرداء خرج المغول (التتار)..

شعوب، قصار القامة، ذوو أعين ضيقة، خارقو القوة، يبثون الرعب، وقديمًا أطلق عليهم الصينيون اسم ـ شعب الخنازير ـ وقد عانت منهم الصين الأمرَّين، وبسببهم شيِّد سور الصين العظيم، وتمكَّنت لفترة من الوقت من إبعاد هؤلاء الهمج عن مدنها وأراضيها، ممَّا جعلهم يتحولون إلى أوربا والشرق.

كان زعيمهم تيموجين والذى سُمِّى فيما بعد باسم (جنكيز خان) أى سيِّد الحكَّام، من أعظم القواد وأعنفهم.

كانوا ينقسمون إلى عدة قبائل، والخطر كل الخطر كان يكمن باتحادهم،

باتحاد هذه القبـائل، تحت سلطة قائد قوى من بينهم حيث يصبحـون خطراً مروِّعًا يهدد كل من حولهم.

لم يعـرف المغول الرحـمة، وكان اسـمهم يثـير الرعب والخـوف فى قلوب الأعداء..

ومن قـوَّادهم المشـهورين الكبـار، الذين دمَّـروا، وقـتلوا وفتـحـوا البلدان الكثيرة، نذكر:

تيمورلنك (أى تيمور الأعرج)، وهولاكو السفَّاح..

اعتمد المغـول فى حياتهم على الرعى والصيد، واتصـفوا بالقذارة ونادراً ما كان المغولى يلجأ إلى غـسل ثيابه وتنظيفها، لم يعرفوا الطهـارة أو النجاسة، كانوا يأكلون الكلاب والقطط ويشربون الدماء كما أكلوا لحوم الفئران..

أحبَّ التـتار الصـيد، وأقـاموا لذلك الحـفلات الخـاصة وهذا من طبـيعـة الفرسان..

كانت ديانتهم الوثنية أول أمرهم، وفيما بعد دخل بعضهم فى المسيحية ومن ثم فى الإسلام..

إن انتـصارهم فى الحـروب التى خـاضوها يعـود إلى تنظيـمهم العـسكرى وسرعتهم فى التحرك وفنهم فى المباغتة كما عرفوا بالخداع العسكرى والتمويه..

نشر المغول، حيـثما حلُّوا، الهلع والخراب والدماء، وأصبح اسـمهم مرادفًا للموت والقتل والتدمير، خاصة فى عهد زعيمهم هولاكو الذى قضى على الخلافة العبَّاسية ودمر بغداد عام 1258 م، واحتلَّ قسمًا من بلاد الشام ثم قرَّر التوجه إلى مصر لاحتلالها، وليعبر منها إلى شمال أفريقيا حتى المغرب.

بعد احتلالهم بغداد وسقوط الخلافة العباسية بقتلهم للخليفة العباسى خنقًا، دبَّت الفوضى وعمَّ الاضطراب فى البلاد الإسلامية، حيث اندفع المغول باتجاه بلاد الشام للسـيطرة عليهـا بعد أن احـتلوا الجزيرة الفراتيـة، ودخلوا المدن.. دون أية مقاومة تذكر ولم يبق أمامهم سوى مصر..

إن اجتياح المغول لبلاد الشام، جعل أبواب مصر مشرَّعة أمام المغول..

من كان فى بلاد الشام، وفى فلسطين وفى مصر فى هذه الفترة..؟؟

كان فى البلاد الشامية بقايا السلطات الأيوبية من ملوك وأمراء ضعاف، وكان فى فلسطين وفى الساحل بقايا أمراء وحكام صليبيين.. وفى مصر كان المماليك يمدُّون أيديهم للإمساك بزمام الأمور ويسيطرون على السلطة..

بعد أن استتبَّ الأمر للمغول فى بلاد الشام، حكم القائد المغولى المسمَّى «كتبغا» باسم سيِّده هولاكو المنطقة الممتدة من الرها شمالا مروراً بحلب وحمص وحماه ودمشق ونابلس حتى غزة...

وكان كتبغا قد اعتنق الديانة المسيحية، وكان قد قامت علاقات تعاون وتبادل بين الصليبيين والمغول وقد بدأت هذه العلاقات منذ زمن جنكيز خان، ومما ساهم فى تعزيز مكانة المسيحيين لدى المغول هو، اعتناق العديد من زعماء المغول للدين المسيحى حيث شيِّدت الكنائس فى عدة مدن، وأدَّى ذلك إلى تحسين العلاقات والروابط بين زعماء المغول وملوك أوربا.

ونحن نعرف ماذا فعل الصليبيون عندما اجتاحوا بلادنا، فقد سرقوا ونهبوا، ودمروا الحضارة الإسلامية فى بلاد الشام، لقد جاء الصليبيون إلى بلادنا فى حملات متعددة وعلى سنوات طويلة يملأهم الحقد والطمع والمصالح الاقتصادية والسيطرة على خيرات الشرق...

استتب الأمر للمغول فى بلاد الشام.. وأراد هولاكو أن يتابع زحفه.. لأنه لم يرتوِ ولم يكتفِ تدميراً وكان يقدِّم المساعدة لهولاكو ملك أرمينية والصليبيون الموجودين فى أنطاكية وطرابلس، غير أنَّ هذه العلاقات ما لبثت أن ساءت بين المغول وبين الصليبيين بسبب تعرض حاكم مدينة صيدا الصليبى واسمه جوليان لفرقة جنود مغولية وقتل قائدها ممَّا أثار غضب (كتبغا) القائد المغولى القوى الذى صمَّم على مهاجمة صيدا وتدمير أسوارها وإحراق منازلها وقتل الكثير من سكانها.

هذا بالإضافة إلى عدة حوادث أخرى وقعت بين المغول والصليبيين جعلت العلاقة بينهما تتوتر والتحالف يتزعزع..

وماذا عن الوضع فى مصر؟

فى الوقت الذى كان فيه المغول يجتاحون البلاد مدمِّرين العراق وبلاد الشام والجزيرة الفراتية وفلسطين.. كان المماليك فى مصر يعملون لتوحيد مصر وبلاد الشام معًا.. حتى توصَّلوا أخيرًا إلى السيطرة على السلطة فى مصر بعد قتل آخر سلطان أيوبى فيها وهو (توران شاه).. رأى المماليك أنفسهم أنهم أمام عدوين:

1 ـ المغول، الذين يزحفون مدمرين المدن والقرى بدون رحمة.

2 ـ الصليبيين، الذين لم يحفظوا عهدًا أقاموه مع المسلمين ولا اتفاقًا وقعوه معهم..

واعتبر المماليك أنفسهم أنهم هم الحصن المنيع للدفاع عن الإسلام والمسلمين..

كان المغول قد صمَّموا على التقدم إلى الأراضى المصرية واجتياحها.. وأرسل هولاكو إلى مصر وفدًا يحمل إلى حكام مصر دعوة للخضوع إلى سلطة المغول، وفى الرسالة تهكم واستهزاء بالجيش المملوكى.. كان ذلك فى أول كانون ثانى عام 1260 م، وممَّا جاء فى رسالة هولاكو إلى قُطُز سلطان المماليك ما يلى:

«... من ملك الملوك، شرقًا وغربًا، الخان الأعظم..... عليكم بالهرب، وعلينا الطلب.. فأىُّ أرضٍ تأويكم، وأىُّ طريق ينجيكم، وأىُّ بلادٍ تحميكم؟ فلا لكم من سيوفنا ضلال، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع.. فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم مالنا، وعليكم ما علينا، وإن خالفتم، هلكتم..».

وصلت رسالة هولاكو إلى قُطُز وكان قد تسلَّم الحكم منذ فترة.

قرأ قُطُز الرسالة، واجتمع بالأمراء فى مصر ليتشاور معهم حول الوضع،

وكان معظم هؤلاء الأمراء من المماليك (أصلهم من بلاد عديدة خاصة بلاد أواسط آسيا ـ التركستان).

لم يستسلم المماليك ولم يخضعوا لتهديدات هولاكو وقرروا المقاومة، وكان قطز مؤمنًا بالجهاد ضد المغول وتحدَّث مع الأمراء بلهجة المؤمن والمصمِّم على الجهاد ضد المغول قائلا:

ـ «يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجِّه فمن اختار الجهاد يصحبنى، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته.. فإن الله مطَّلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين..

وقام قُطز بأول عمل جرىء ومهم عندما أمر بقتل رُسُل المغول، وبهذا يشير إلى قوة المصريين ورفضهم الخضوع والاستسلام.. وأكثر من ذلك:

إعلان الحرب على المغول..

وأمر قُطز قائده بيبرس أن يتقدَّم فى فرقة عسكرية ليطَّلع على أخبار المغول، فسار إلى غزة واحتلها من أيدى التتار...

وبدأ المماليك الاستعداد للمعركة.. حشدوا الجيوش وجمعوا الأموال اللازمة للمعركة المرتقبة، وجاءت ظروف جيدة لصالح المماليك، وهى قيام نزاع بين المغول حول وراثة العرش المغولى بعد موت الخان الأعظم امبراطور المغول الأكبر، ممَّا اضطر هولاكو أن يذهب إلى منغوليا مع قسم من جيشه وترك القسم الآخر تحت إمرة القائد الكبير (كتبغا).

أعدَّ قُطُز 40 ألف مقاتل، وكان المغول فى منطقة بعلبك فتحركوا وساروا باتجاه الجنوب، إلى فلسطين للقاء المماليك.. وفى هذه الأثناء كانت قد قامت اضطرابات فى مدينة دمشق بين المسلمين والمسيحيين الذين عمدوا إلى إدخال الخمور إلى الجامع واضطر المغول للوقوف فى دمشق وإعادة الهدوء إليها..

سار السلطان قطز بجيوشه مجتازًا الأراضى الفلسطينية متَّبعًا طريق الساحل، ومرَّ قرب عكا التى كانت بيد الصليبيين الذين كانوا ما زالوا يسيطرون على

الساحل، وخيَّم المماليك المصريون فترةً قرب عكا وتزودوا بالمؤن من أسواقها وكان خلال هذه الفترة يتابع قطز تحركات المغول وعلم أنهم وصلوا إلى قرب نهر الأردن..

طلب قطز من الصليبيين عدم التدخل فى هذه الأحداث وهدَّدهم إن هم تدخَّلوا سيعود ويحاربهم.. من أجل ذلك وقف الصليبيون على الحياد وتابع المماليك زحفهم لملاقاة المغول...

اتجه المصريون شرقًا حيث كان المغول قد وصلوا إلى منطقة تسمى (عين جالوت)..

وصل المماليك عين جالوت فى أيلول 1260 م، ولم يكشف قطز كل جيوشه لعيون المغول حيث خبَّأ معظمهم فى التلال المجاورة لعين جالوت ولم يظهر من الجيش إلاَّ مقدمته التى كان يقودها بَيْبَرس وكان هذا كمينًا نصبه قطز للمغول..

كان قطز واثقًا جدًا من تقدمه ومن أنه سوف يفوز بالحرب خاصة أنه استغلَّ عودة هولاكو إلى إيران، ليضرب ضربته الحاسمة فى عين جالوت.

عين جالوت...؟!

تقع بين مدينة نابلس ومدينة بيسان فى فلسطين على نهر يدعى نهر جالود.. وتكثر فيها المستنقعات.

أثار قطز الحماس فى نفوس جنوده وذكَّرهم بما يفعله المغول بالسكان وبالمقاتلين إذا ما ربحوا المعركة وبما يفعلونه بالمدن وبالقرى من تدمير وإحراق...

وحثَّهم على القتال..

بادر قائد المغول (كتبغا) بالهجوم، وأخذ بَيْبَرس يناوشهم، تارة يتقدَّم وتارة يتأخر ويتراجع إلى التلال.. واشتدت مطاردة المغول له حتى تمَّت الخطة المرسومة وتم تطويق المماليك للمغول من كل الجهات.

كان مع المغول فى هذه المعركة الملك الأيوبى أمير قلعة بانياس..

استبسل المماليك فى هذه المعركة..

رأى قطز ذلك.. رمى خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته:

ـ وا إسلاماه!!

وحمل بنفسه وبمن معه حملة بطولية على التتار، ولقى كتبغا مصرعه فى هذه المعركة.. وبذلك انتهت معركة عين جالوت..

قتل كتبغا، وكان من أشد المغول قوةً وبأساً وأشجعهم، كان خبيراً بالحروب.. وقد استراح الإسلام منه..

هزم المغول..

وانتصر المماليك والعرب والإسلام فى عين جالوت.. بعد معاناة واستبسال لا نظير له، وتعتبر خسارة التتار فى عين جالوت ضربة كبيرة لهم، حيث أوقفت زحفهم وتوسعهم وتخريبهم للبلاد وللمدن وللحضارة فى كل منطقة دخلوها.

فى عين جالوت هزم المغول.. ولأول مرة، وتعرض جيشهم للدمار والتفكك، وحلَّ فى نفوس المغول الخوف والرعب بدل العنجهية والعنفوان..

كانت عين جالوت بمثابة السد المنيع أمام تدفق السيل المغولى الجارف والمدمِّر.. وأنقذت المنطقة من همجيتهم..

أعادت عين جالوت الثقة للمسلمين بأنفسهم، وبرز فى هذه المعركة وخلَّدها أبرز القادة المماليك وهو (الظاهر ركن الدين بيبرس).

أخذ المغول يتجمعون قرب بيسان، علم قطز بذلك فأسرع إليهم قبل أن يتمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم، اندفع قطز إليهم صارخًا بأعلى صوته:

ـ يا الله، انصر عبدك قطز على التتار!

بعد عين جالوت عادت الثقة والقوة للمسلمين، ورفعت من معنوياتهم،

وتحرَّك سكان دمشق المسلمين بالهجوم على المغول وأعملوا السيف فيهم، كما تعرضوا للمسيحيين فى دمشق لأنهم وقفوا مع المغول ضد المسلمين..

فرح السكان في بلاد الشام، وهجموا على بيوت الصليبيين حيث كان يوجد المماليك فنهبوها وخرَّبوها وهدموا عدة كنائس.. كما هاجم المسلمون بيوت اليهود ونهبوها ولم يتركوا لهم شيئًا، وانتقم المماليك من كل من وقف مع المغول..

لم يكتف المماليك بانتصارهم فى عين جالوت، بل طاردوا المغول إلى خارج نهر الفرات، ولو انتصر المغول فى عين جالوت، لتغيّر وجه التاريخ ولامتدَّ سلطانهم إلى ما لا نهاية له ولعاد الفرنجة واحتلوا من جديد ما خسروه من مدن فى فلسطين وغيرها...

وبانتصار المماليك فى عين جالوت، نجت مصر وحضارتها ومدنها وحقولها من الخراب والتدمير، وأصبحت القاهرة المركز الجديد للمسلمين وللعرب، جاءها العلماء وأصبحت مقر الزعامة والقيادة فى العالم الإسلامى، وأصبحت سلطنة المماليك أقوى دولة فى الشرق كله وامتد نفوذهم على المنطقة الممتدة من نهر الفرات إلى نهر النيل، قوى نفوذهم فى مصر وتعاظمت سلطتهم خارجها وزالت الدولة الأيوبية نهائياً حيث كان ما زال فيها بقايا الأيوبيين، وفى فلسطين كان لا يزال بقايا الصليبية. وضمَّ المماليك بلاد الشام إلى مصر ومن بقى من المغول فى بلاد الشام دخل فى الدين الإسلامى.

إن أهم الأسباب التى ساعدت على هزيمة التتار هى:

- وحدة الموقف المصرى..
- الاستعداد العسكرى المسبق للحرب..
- بث جنود مصريين داخل صفوف التتار مما ساهم فى إضعاف روح التتار المعنوية..

تعتبر عين جالوت بداية النهاية للهمجية المغولية.. وتخريبهم للبلاد وتدميرهم للحضارات..

بعد عودة المماليك إلى مصر، قـام بيبرس وقتل قُطُز واستلم السلطة مكانه، وهذه هى عادة المماليك، وتقدم الأمراء والمماليك وأعلنوا ولاءهم للسلطان الجديد بيبرس، وكـان هذا تشجيعًـا للمغول بالعودة ومـهاجمة حلب وقـتلوا العديد من سكانها انتقامًا لما أصابهم فى عين جـالوت، وتقدَّموا حتى وصلوا حمص وحماه، وهناك استطاع أمير حمص وحماه ردهم إلى ما وراء نهر الفرات..

عمل بيـبرس على توطيد سلطته فـى مصر وإعادة تنظيم حكومـته فى بلاد الشام، وعاد والتفت إلى الصليـبيين لمعاقبتهم بسبب مسانـدتهم للمغول وتعاطفهم معـهم وأغار عليهم فى فلسطين ودخل جنوده النـاصرة وعكا واستمـرت الغارات والمضايقات المملوكية للصليبيين.

عام 1265 م، خرج بيبـرس نحو بلاد الشام بسبب أنباء وصلتـه عن محاولة المغول مهاجمة شمـال البلاد الشامية. عام 1265 م مات هولاكو المغـولى، وبقيت عـين جالوت فى قلب الـتاريخ سـجلا للبـطولة والاستـبسـال ونقطة فـاصلة فى التاريخ..

وعاد الأمل وأنقذت المنطقة وأنقذ الإسلام من أخطر بلاء أصابه..

سجَّلت عـين جالوت اسم السلطان (الملك المظفَّـر سيف الدين قُطُز - 1260 1259 م) الذى اسـتطاع أن يُبطل أسطورة الجـيش المغـولى الذى لا يُغلب، وكـان انتصاره حاسمًا لم يتوقعه أحد..

أثبـتت عـين جالوت أن المغـول يمكن أن يهـزمـوا، وكان النـصر، نصـرًا حاسمًا..

معركة بلاط الشهداء

ثلاثة أبطال

1 ـ عقبة بن نافع

ـ بطل المغرب وسيِّد الشهداء

ـ بناء القيروان

ـ الطوارق

2 ـ موسى بن نصير

ـ طارق بن زياد (فاتح الأندلس)

ـ نهاية موسى بن نصير

ـ مضيق جبل طارق

3 ـ عبد الرحمن الغافقي

ـ معركة بلاط الشهداء

عقبة بن نافع الفهرى

بعدما ثبَّت معاوية سلطته انصرف إلى ناحيتين هما:

ـ الوضع الداخلى: حيث عمل على لملمة الأحزاب والقبائل.

ـ الوضع الخارجى: حيث وجَّه جهده إلى جهتين:

1 ـ نحو الشمال أى نحو البيزنطيين، الذين كانوا قد أدخلوا إلى البلاد العربية وخاصة إلى لبنان جماعات من الجراجمة عرفوا فيما بعد باسم المردة وأسكنوهم فى المرتفعات الجبلية بغية مضايقة الدولة الأموية.

2 ـ نحو الغرب أى نحو شمال أفريقيا، بحيث إنه كان قد تم فتح مصر زمن الخليفة عمر بن الخطاب على يد عمرو بن العاص.

بعد ذلك وبعد أن استتبَّ الوضع فى مصر تقدَّم عمرو بن العاص باتجاه الغرب حتى وصل إلى برقة ثم فتح طرابلس الغرب عام 28 هـ. وولَّى على برقة عقبة بن نافع الفهرى.

بعد عمرو بن العاص حكم مصر وشمال أفريقيا عبد الله بن سرح وذلك زمن خلافة عثمان بن عفَّان، وقد سجَّل عبد الله بن سرح على البربر وعلى البيزنطيين فى شمال أفريقيا عدة انتصارات.

كل هذه الغزوات لم تكن فتحًا منظمًا إنَّما كانت غزوات من أجل ردِّ الخطر عن العرب فى مصر.

فى زمن خلافة معاوية بن أبى سفيان تولَّى على شمال أفريقية عقبة بن نافع 670 م. وكان عقبة قائداً عظيمًا. عاد معاوية وعزل عقبة وولَّى مكانه على أفريقيا (أبا المهاجر بن دينار) الذى قبض على عقبة وقيَّده بالسلاسل. ويعود السبب إلى أنَّ عقبة كان يحتقر البربر، بينما أبو المهاجر كان يعتمد سياسة ليِّنة، وهذا الاختلاف فى السياسة أدَّى إلى الاصطدام بين الرجلين.

عقبة بن نافع.. من مواليد المدينة المنورة.. بطل المغرب الأول.. وسيِّد شهدائه.. من هو؟ ما كان دوره؟

هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى، يحتل مكانة رفيعة بين قادة التاريخ الإسلامى، وهو من أشدِّهم ثباتًا وأوسعهم فتوحًا، لم يفكِّر بالفتح لأجل الفتح، إنَّما كان يفتح البلدان الشاسعة، الواسعة فى سبيل هدى الناس وإرشادهم إلى الدين الحنيف وإدخالهم فى رحاب الإسلام.

يعتبر عقبة صاحب الفضل الأول فى نشر الإسلام واللغة العربية فى شمال أفريقيا، عرف بتدينه وبورعه وبتقواه، ودومًا كان يوصى أبناءه ويعلِّمهم على مكارم الأخلاق ومن وصاياه لأبنائه:

«يا بنى إنِّى بعت نفسى من الله...

- يا بنى أوصيكم بثلاث خصالٍ فاحفظوها ولا تضيعوها:

املأوا صدوركم من كتاب الله، فإنَّه دليل على الله.

خذوا من كلام العرب ما تهتدى به ألسنتكم ويدلُّكم على مكارم الأخلاق..

أوصيكم أن لا تتداينوا ولو بعتم العباء..

إن الدين ذلٌّ فى النهار وهمٌّ فى الليل..

لا تأخذوا العلم من المغرورين فيفرِّقوا بينكم وبين الله..

لا تأخذوا ديناً إلا من أهل الورع، فإنَّه أسلم لكم ومن احتاط سلم ونجا..

إن من يقول هذه الكلمات، ويوصى بهذه الوصيَّة لن يكون إلا رجلا كبيراً.. وكبيراً جداً بأخلاقه وسعة صدره، إنَّه عقبة بن نافع، القائد العسكرى المحنَّك، فاتح شمال أفريقيا بأسره، محطمًا قوة البيزنطيين والبربر، ماضيًا يحرز الانتصارات، وناشراً دين الإسلام فى صفوف البربر الذين لبُّوا دعوته وانضووا تحت رايته.

واصل عقبة تقدُّمه فى شمال أفريقيا حتى وصل المحيط الأطلسى، وهناك

أقحم فرســه فى مياه المحيط حتى غـمرت المياه صدر الفرس، رفع عـقبه يديه إلى السماء وقال:

ـ يا رب. . لولا هذا البحـر المحيط لمضيت فى البـلاد إلى ملك ذى القرنين مدافعًا عن دينك ومقاتلا من كفر بك وعبد غيرك!

كلامٌ يدلُّ على شدَّة إيمـان عقبة بن نافع وعلى بسالته فى القـتال دفاعًا عن كلمة الحق. . كلمـة الإسلام. التى دفعت بالمؤمنين من أبناء الصـحراء إلى أقصى الغرب المعروف يوم ذاك. .

إيمان لا يشوبه طمع فى مال أو رغبة فـى كسب. . إيمان ذلَّل لصاحبه كلَّ صعوبة. .

هذه الصورة تظهر الحدَّ الأقصى الذى بلغـه الفاتح الإسلامى عقبة بن نافع، اجتاز فيها المغرب حتى وصل إلى مدينة أغادير وذلك فى العام 682 م.

إنَّ فتوحات عقبة بن نافع هذه، أكثر ما تشبه الأساطير بسبب ما أظهره فيها عقـبة من بطولات مع جنوده وبـسبب ما قـدَّموه من بسـالة فى القتـال واستـهانة بالموت، والسعى وراء نشر كلمة الإسلام مهما كلَّفهم ذلك. .

قطع عقـبة فى هذه الغزوات مـا يقارب الـ 6500 كيلومتـر ذهابًا فقط وفى العودة اجتاز 3000 كيلو مـتر أخرى قـبل أن يلقى الشهادة قـرب واحة بسكرة فى الجزائر حاملا سيفه بيده وراية الإسلام باليد الأخرى.

يعتبر عقبة من كبار الفاتحين فى التاريخ. . أدخل فى جيشه كثيرًا من البربر.

كان يظهر أمـام أتباعه بمظهر الزاهد فى كل شىء. فـهو يكتشف لهم الآبار ويخـرج لهم الماء من الأرض. ولم يأخـذ لنفســه أى شىء من الغنائم التى كـان يكسـبها فى المعـارك، وكان يقـضى معظم ليله فى الـصلاة والعبـادة، وينام على الأرض. . .

عندما وصل عقبة إلى تاهرت وهذه معقل جبلى بين مدينتى الجزائر ووهران وجد هناك جموعًا كبيرة من البـربر، لم يخف عقبة من كثرتهم وعندما حان وقت

الصلاة ترجَّل عن فـرسه وأقام صلاته مع جـنوده مواجهًا للعــدو. . صلَّى صلاته بكل هدوء، وبعـد الانتهاء مـن الصلاة ركب جواده وهجـم على أعدائه مع بقـية أفراد جنده. . مما دبَّ الرعب فى قلوبهم وهزمهم. .

هزمهم بإيمانه. . ثم عاد واجتذبهم بإيمانه. .

بنى لهم مـسجـدًا وترك معــهم من يعلِّمهم القـرآن والسنَّة والكتابة وأكـمل طريقه فاتحًـا حتى طنجة. . ثم انحرف فى الجـبال الوعرة. . وجال فى مـرتفعات جبال الأطلس مندفعًا غربًا حتى بلغ مياه المحيط الأطلسى. . .

عند مدخل ممر جبلى ضـيِّق وقف زعيم قبيلة أوروبة البربرية واسمـه كُسَيْله مستعينًا بالبـيزنطيين ينتظر عقبة بن نافع. . وفى هذا الموقع استشـهد عقبة بن نافع أمام كسيلة مع من كان معه من الجنود. كان ذلك عام 683 م.

بناء القيروان:

مدينة. . بنـاها الفاتح العظيم عقـبة بن نافع لتكون قـاعدةً لجنده، ومـركزًا لسلطته، وهى من أول المدن الإسـلامية تأسيسًـا، بنيت عام 50 هـ، فى وسطهـا المسجد ثم بنى الناس حوله. والسبب فى بنائها يعود إلى أمرين:

- تقليد من سـبقـه من القواد المسلمين الذين أسَّـسوا مدنًـا بعد فتـوحاتهم كالفسطاط فى مصر والكوفة فى العراق.

- إيجاد مكان متوسط يسند ظهر الجيوش الإسلامـية فى فتوحاتها فى شمال أفريقيا.

لقد اختـار عقبة بن نافع مكانًا صـحراويًا لبناء القيروان بعـيدًا عن السواحل البحرية لتكون فى مأمن من مفاجآت الأساطيل البيزنطية.

كانت مدينة القيـروان رمزًا للحياة السياسيـة فى بلاد المغرب. وكان الشكل العام للمدينة مدورًا مثل الكأس وقصر الحاكم فى وسطها.

كانت القيروان تمثِّل نقـطة التقاء بين الامتداد الإسلامى غربًا وقـاعدة الخلافة

فى الشرق، كما تقترب من موطن الحضارة الرومانية واليونانية، وأخذت من كل ما حولها.

كانت القيروان مطمعًا لكل خارج عن سلطة الدولة العباسية فيما بعد. وعندما أصبحت الدولة العباسية فى حالة ضعف وتردٍّ كانت أولَّ الولايات خروجًا عن الطاعة.

موسى بن نصير

فاتح عظيم..

ينتسب إلى قبيلة بكر بن وائل التى كانت مساكنها فى أرض الحيرة غربى نهر الفرات قبل ظهور الإسلام. وبعد الإسلام وانتشاره وتوسعه انضمت قبيلة بكر إلى حركة التوسع الإسلامى.

كان والده قد وقع أسيراً فى يدى خالد بن الوليد أثناء قتاله فى العراق وأسلم أثناء الأسر ثم انتقل إلى الحجاز.

نشأ موسى بن نُصير نشأةً إسلامية واطَّلع على سيرة الرسول وما قام به من أعمال فى سبيل نشر الإسلام، ممَّا قوَّى فى نفسه التقوى والورع، كما كان فصيح اللسان.

عمل والده رئيسًا للحرس لدى معاوية بن أبى سفيان عندما كان معاوية واليًا على الشام زمن خلافة عثمان بن عفَّان، وهذا ما أتاح لموسى أن ينتقل إلى بيت معاوية ويتدرَّب على السياسة وعلى الفروسية على أيدى حاشية معاوية.

أسهم موسى فى إنشاء القوة البحرية فى جيش معاوية التى كانت مهمتها مقاومة البيزنطيين الذين كانوا يغيرون على شواطئ الشام ويهددون أهلها، وأصبح موسى أحد أمراء البحر وقاد أكثر من حملة بحرية ضد البيزنطيين زمن تولية مصر إلى عبد العزيز بن مروان، عمل موسى مستشاراً له فى مصر ثم عمل وزيراً لبشر بن مروان فى البصرة ثم عاد إلى مصر ليعمل مع عبد العزيز بن مروان.

عاد المسلمون للحديث مجدداً عن الفتوح فى شمال أفريقيا، وتطلعت العيون إلى موسى بن نصير. ورُشِّح للقيام بهذا العمل الضخم، فأعطاه عبد العزيز بن مروان كل قوة ونفوذ من أجل ذلك ووضع تحت تصرفه كل ما يريد.

وبسبب تعرض العرب فى شمال أفريقيا إلى مضايقات البربر وثوراتهم عليهم قرَّروا مواصلة الفتوح وإخضاع شمال أفريقيا بشكلٍ نهائى لحكم الإسلام ونشر الدين الإسلامى والقضاء على كل قلاع وحصون الروم هناك. من أجل ذلك

قاد موسى حملته فى شمال أفريقيا عام 85 هـ. متجهًا أولا إلى القيروان مركز عمله وقاعدة المسلمين فى شمال أفريقيا ومركز ولاية شمال أفريقيا الإسلامية ومنها بدأ بغزو بقية المناطق..

القيروان التى كان قد أسَّسها الفاتح العظيم عقبة بن نافع الفهرى لتكون قاعدة لجيشه يقيمون فيها ويأمنون من محاولات أهل البلاد الأصليين من التعرض لهم.

نظَّم موسى بن نصير قواته أحسن تنظيم وأوكل القيادة إلى أولاده الأربعة(عبد الله، مروان، عبد الملك وعبد العزيز). إضافة إلى عدد آخر من القادة الأبطال ومن بينهم أبناء عقبة بن نافع وطارق بن زياد أحد أبناء البلاد الأصليين. عمل موسى على بث روح الشجاعة فى نفوس جنوده وزرع فيهم الثقة.

يعتبر موسى بن نصير واحدًا من أقدر رجالات الدولة الأمويَّة وأذكاهم، بدأ بتوجيه حملاته لاستكمال الفتح والتوسع ونشر الدين ومؤدبًا كل من شقَّ عصا الطاعة من القبائل هناك، كان يهاجم البربر دومًا ويغزوهم ولا يجعلهم يعرفون الاستقرار والهدوء وفى عهده تم فتح بقية مناطق المغرب.. كما وجَّه اهتمامه إلى نشر الدين الإسلامى بينهم حيث أرسل إليهم العلماء لتعليمهم الدين الإسلامى وقراءة القرآن وبنى لهم المساجد.. والتى أصبحت فيما بعد مراكز علمية ودينية وأدبية ولغوية يتلقى فيها التلامذة مختلف العلوم.

كل ذلك ساعد على بعث الأمن والاستقرار والهدوء فى شمال أفريقيا وأدخل فى طاعته قبائل المغرب الأقصى وقبائل جبال الأطلس العليا، ولقيت قواته كل نجاح أينما توجهت ودانت له كل بلاد المغرب وشمال أفريقيا ولم يبق أمامه سوى بعض المدن الساحلية التى كانت ما تزال فى أيدى الروم وعيَّن على طنجة القائد طارق بن زياد وعاد موسى بن نصير إلى مركز عمله فى مدينة القيروان.

يعتبر موسى بن نصير واحدًا من ثلاثة من كبار الفاتحين فى الإسلام.. انتهوا بمأساة وواجهوا فى نهاية انتصاراتهم النكران والدسَّ من قبل حاسديهم.. وهم:

(محمد بن القاسم الثقفى، قتيبة بن مسلم، موسى بن نصير).

وكان الثلاثة فى حقبة زمنية واحدة، مجَّدهم التاريخ فى وقت واحد، ثم بكى عليهم.. جمعتهم مأساة مشتركة فى الجهاد وفى البطولة..

كل واحد من هؤلاء الثلاثة بنى مجده بيده..معتمداً على شجاعته وعلى صدقه وإخلاصه وصبره.. وفى النهاية تنكروا له..

ثلاثتهم، وجدوا المأساة والمحنة على يد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك.. وكل منهم ذاق الكأس المرَّة..

من يصدِّق؟؟

موسى بن نصير..

فاتح أفريقيا والأندلس، فاتح عربى مسلمٍ غيَّر وجه التاريخ بجهاده، يلقى ما لقى وينتهى جثَّةً هامدةً فى إحدى زوايا المسجد فى دمشق مقهوراً معذبًا.

طارق بن زياد:

عين موسى بن نصير قائداً جريئًا على مدينة طنجة، هو طارق بن زياد، أعد موسى جيشًا من 12 ألف مقاتل معظمهم من البربر وأسند قيادتهم إلى طارق بن زياد، وقرَّر غزو بلاد الأندلس.

اجتاز طارق عام 711م. بجيشه المضيق الفاصل بين أسبانيا والمغرب والذى سمِّى باسمه فيما بعد أى(مضيق جبل طارق) وسمِّى الجبل الصغير الممتد إلى يمين المضيق وهو صخرة كبيرة سمِّى بجبل طارق.

هناك.. وقبل بدء المعارك مع الأعداء لجأ طارق إلى عمل بطولى فريد من نوعه وهو حرقه جميع المراكب التى نقلت جيشه، ثم وقف بين جنوده وخطب فيهم قائلا:

ـ البحر من ورائكم.. والعدو من أمامكم فإلى أين المفر.

بهذا الكلام أفهم طارق جنوده أنه لا مفرَّ ولا هروب لأن المراكب أحرقت

وليس أمامهم سوى الانتصار على عدوهم أو الموت دون ذلك. . ووقعت المعركة مع سكان أسبانيا وكانوا من القوط. . وانتهت بانتصار العرب. .

تابع طارق زحفه شمالا حتى وصل إلى العاصمة طليطلة فدخلها بعد انسحاب من فيها من جيوش القوط، وبقى فيها بانتظار وصول رئيسه موسى بن نصير، الذى كان يسير بنجدة من 18ألف مقاتل معظمهم من العرب.

أكمل موسى وطارق الفتوحات والتوسع فى شبه جزيرة أيبريا (أى فى أسبانيا والبرتغال) وبسطوا سيطرتهم عليها.

مضيق جبل طارق:

إن تسمية جبل طارق وتسمية مضيق جبل طارق، تسمية أطلقت على صخرة شامخة عند الطرف الجنوبى من إسبانيا مطلّة على مضيق يفصل بين أسبانيا وبين المغرب أو بالأحرى يفصل بين أوربا وأفريقيا.

لماذا سُمِّى هكذا(الصخرة والمضيق)؟

عندما اجتاز طارق بن زياد هذا المضيق غازيًا بلاد الأندلس وقف عند هذه الصخرة الشامخة عام711م. بجنوده وعددهم 12 ألف مقاتل خاطبًا فيهم:

ـ أيها الناس! أين المفر! البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم هنا أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام. . . .

إن عمل طارق هذا فريد من نوعه لجرأته وشجاعته النادرة حيث إنه لم يترك لجنوده أى أمل فى الهروب والعودة إلى شمال أفريقيا، ولكونه أول من غزا إسبانيا عن طريق هذا المضيق الذى يبلغ عرضه 15 كيلو متر سمِّى المضيق والجبل باسمه، ومازال معروفًا حتى اليوم بهذه التسمية.

إن حكم المسلمين للأندلس استمر حوالى 700عام، وانتهى فى العام 1492م.

نهاية موسى بن نصير:

كان الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك غاضبًا على موسى بن نصير لأنَّ الأخير حمل من الهدايا والغنائم والأسلاب ليقدِّمها للخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك الذى كان على فراش الموت آنذاك..

أرسل سليمان بن عبد الملك سرًا إلى موسى بن نصير لكى يبطئ فى سيره حتى إذا وصل دمشق مقر الخليفة يكون الخليفة سليمان بن عبد الملك قد مات..

رفض موسى هذا الطلب.. ووصل إلى دمشق وقدَّم ما يحمله من هدايا ومغانم إلى الخليفة الذى يحتضر فى فراشه وفيها الياقوت والجواهر والأقمشة المنسوجة بالذهب والفضة، ومعها الأسرى وأبناء الملوك والبربر والإسبان..

رأى الوليد كل ذلك.. واندهش ممَّا رأى.. ولم تمض إلاَّ أيام ومات الوليد.. وخلفه سليمان بن عبد الملك الذى كان حاقدًا على موسى بن نصير.. وضمر له الشر وأراد الإيذاء به..

ذات يوم، دعاه الخليفة وكان حاضرًا المجلس عمر بن عبد العزيز (ذلك الإنسان التقى، الورع، الأمير الأموى والذى سمِّى فيما بعد باسم خامس الخلفاء الراشدين لأنَّه سار على نهج الخلفاء الراشدين الأربعة قبله.. أبو بكر، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفَّان، على بن أبى طالب، وأصبح عمر بن عبد العزيز فيما بعد خليفة على المسلمين وأميرًا للمؤمنين بعد سليمان بن عبد الملك، وكانت سيرته، سيرة طيبة وأعماله مشابهة أعمال من سبقه من الخلفاء الراشدين، رفعته إلى الكمال وخلَّدت اسمه)...

كان عمر بن عبد العزيز إلى جانب سليمان بن عبد الملك عندما دخل موسى بن نصير على بلاط الخليفة..

وقف موسى فبادره الخليفة سليمان بالوعيد والتهديد وختم حديثه قائلا له:

ـ قاتلنى الله إن لم أقتلك؟؟

ودار نقاش طويل.. ومما أجاب به موسى:

ـ أما والله يا أمير المؤمنين، مـا هذا بلائى ولا قدر جزائى. أما والله لمن فى بطن الأرض أحبُّ إلىَّ ممَّن على ظهرها.. مروان وعبـد الملك والوليد أخوك وعبد العزيز عمك، وما أنت بفاعل يا أمير المؤمنين، إنى لا أرجو أن يكرِّم موسى بهوان أمير المؤمنين...

التفت سليـمان إلى ابن عـمه عُمـر بن عبد العـزيز وقد لانت نفـسه على موسى، تدخَّل عـمر بن عبد العـزيز وتحدَّث عن موسى حـديث الإنسان المؤمن، الطيِّب، التفت سليمان إلى الحضور فى ديوانه، وقال لهم:

ـ من يأخذ هذا الشـيخ ويستخرج منه الأمـوال دون أن يؤذيه، قام يزيد بن المهلب وقال:

ـ أنا يا أمير المؤمنين.

أجابه سليمان:

ـ خذه ولا تمسَّه وضع العذاب على ابنيه(مروان وعبد الله).

خرج به يزيد بن المهلب ثم انصرف إلى منزله..وكان عبد الله بن موسى بن نصير واليًا على أفريقيا، كما كان لموسى ولد ثالث هو عبد العزيز، أخذ جواسيس الخليفة سليمان ينقلون إليه أخبارًا مـدسوسة وحاقدة على عبد العزيز بن موسى بن نصير ويمـلأون قلبه حقدًا عليه فخـاف الخليفة سليمان من عبـد العزيز أن ينفصل بولاية الأندلس.. وفكَّر بقتله..

مرَّةً، كان عبد الـعزيز يتهيأ للصلاة، دخل عليه المتآمـرون، فقتلوه وحملوا رأسـه إلى سليمـان بن عـبد المـلك فى الشام، ولمَّا وصلـوا، وضعـوا الرأس بين يديه..

بعث الخليفة فى طلب موسى بن نصير، فأتاه وجلس فقال له سليمان:

ـ أتعرف هذا الرأس يا موسى؟

نظر موسى إلى الرأس أمامه، فإذا هو رأس ابنه عبد العزيز، فقال فى ثبات وصبر:

ـ نعم، إنَّه رأس عبد العزيز بن موسى...

ما أصعبها من لحظات، وما أمرَّه من موقف.. يأتون بموسى بن نصير، فاتح إسبانيا، البطل التقى الورع، ويكافئونه برأس ابنه عبد العزيز.. لا لشىء إلاَّ لأنه قدَّم الغنائم للخليفة وهو على فراش الموت ولم ينتظر ليقدمها للخليفة الجديد..

ما أظلم الحكام وما أطمعهم بالدنيا، أين هم من عمر بن عبد العزيز(الذى سيأتى ليحكم بعد سليمان ويقوِّم ما اعوج من سوء الإدارة....).

قام موسى والغصَّة فى قلبه، حزنًا على ابنه، حَمَدَ الله وقال:

ـ... وهذا الرأس، رأس عبد العزيز بين يديك يا أمير المؤمنين، فرحمة الله عليه، لقد كان عابداً مؤمنًا، محبًا لله ولرسوله، حَسَنُ الطاعة لك، شديد الرأفة بالمسلمين، وإن يكن عبد العزيز قد قضى نحبه، فليغفر الله ذنبه..

أجابه الخليفة:

ـ بل ابنك المارق من الدين، الشاق على المسلمين، المنابذ لأمير المؤمنين، فمهلا أيها الشيخ الخرف.. أجابه موسى:

ـ والله ما بى من خرف.. وأنا أقول: فصبر جميل ،والله المستعان على ما تصفون، فأذن برأسه يا أمير المؤمنين.

واغرورقت عينا موسى بالدموع...

أمر سليمان بن عبد الملك بأن يعطى الرأس لموسى.. لوالد الرأس، فقام موسى وأخذه وجعله فى طرف قميصه، وأسرع حزينًا ورأس ابنه بين يديه.. وتوارى موسى عن الأعين... وقال سليمان بن عبد الملك:

ـ إن فى الشيخ لبقية بعد..

وكأنَّه لم يرتو دماءً من حقده على موسى وما فعل بابنه، وما تركه فى نفس الشيخ الذى أبلى بلاءً حسنًا فى فتوحات أفريقيا وإسبانيا.

وفيما بعد.. وُجد موسى بن نصيـر جثةً.. فاحت رائحتها فى زاوية إحدى المسـاجد فى دمـشق، دون أن يدرى بها أحـد من الناس، هكذا انتهى مـوسى بن نصير...

انتهى ذلك الفـاتح العظيم.. جثةً فى زاويـة أحد مساجـد الشام مقـهورًا، حزينًا على ابنه وعلى سوء معاملة الخليفة له...

لله ما أظلم الإنسان.. وما أطمعه...

وما يفعله الحقد فى نفس صاحبه...

فـاتح عظيم.. طويت صـفحـتـه بمأساة تقـشـعر لهـا الأبدان وتهـتز لهـا الضمائر..

عبد الرحمن الغافقى

ومعركة بلاط الشهداء..

لم يكتف المسلمون بفتح الأندلس فقط إنما عبروا جبال البيرينيه(البرانس) وغزوا فرنسا.

كان ذلك عام 732م. عندما أعدَّ القائد المسلم فى الأندلس عبد الرحمن الغافقى جيشًا كبيراً لغزو دولة الفرنجة.. مكتسحًا جنوب فرنسا وزاحفًا نحو الشمال قاصداً مدينة تور...

خاف أمراء الفرنجة من تقدُّم المسلمين، تنادوا للوقوف بوجه الجيش المتقدِّم فى بلادهم ومنتصراً على كل من يقف بوجهه، وكان يومها فى بلاط ملك الفرنجة وزير يسمَّى شارل مارتل رأى أن وصول المسلمين إلى ما وصلوا إليه يهدِّد دولتهم مباشرة ومن أجل ذلك دعاهم للتحرُّك سريعًا للوقوف أمام الزحف العربى الإسلامى..

تجمَّع لدى شارل مارتل جيوش من الفرنجة والسكسون والألمان، قادها ليوقف بها زحف عبد الرحمن الغافقى.. من هو شارل مارتل؟

إنه جندى ألمانى الأصل.. كان أول أمره حاجبًا فى قصور الملك شارلمان..

التقى الجيشان فى مكان بين مدينتى تود وبواتييه، الأوربيون بقيادة شارل مارتل، والعرب المسلمون بقيادة عبد الرحمن الغافقى أمير الأندلس آنذاك..

سُمِّيت هذه الموقعة باسم بلاط الشهداء، بسبب كثرة ما سقط فيها من شهداء، كانت المعركة شديدة وقاسية، استمرَّت ثلاثة أيام، وكان عدد جيش الفرنجة أكثر بكثير من عدد جيش المسلمين..

أول يوم من بدء القتال أحرز فيه المسلمون كسبًا وانتصاراً على الفرنجة الذين كانوا يدافعون والمسلمون يهاجمون، حيث كان الفرنجة كلهم من المقاتلين المشاة بينما كان المسلمون جميعهم من الفرسان، لم يتزحزح الفرنجة من مكانهم إنما بقوا

واقفين فى أماكنهم ملتصقين ببعضهم وواصل العرب القتال وكانوا يشنون الغارة تلو الغارة على الفرنجة والهجوم يتبع الهجوم وكَثُرَ القتلى بين الجانبين.

قام الفرنجة بمحاولة التفاف ناجحة على المسلمين الذين كانوا يحتفظون بالغنائم والأسلاب يحملونها معهم، محاولين أخذها والنيل منها وذلك إرباكًا للجيش الإسلامى. انهمك المسلمون وتلهّوا بالدفاع عمًّا معهم من غنائم وحمايتها وبقى بعضهم يقاتل، وهكذا ضعف المسلمون وجعلت شارل مارتل يحرز انتصاراً ويكسب الجولة الثانية من المعركة حيث التفَّ الفرنجة ومن معهم حول المسلمين.. حاول القائد المسلم عبد الرحمن الغافقى إصلاح الوضع، لكنه أصيب بسهم أرداه قتيلا فى ساحة المعركة، وأصبح المسلمون بدون قيادة.

أثناء الليل اكتشف المسلمون بأنَّ قائدهم عبد الرحمن قد قُتل فى ساحة المعركة.. عند ذلك قرَّروا الانسحاب والرجوع إلى قرطبة ومعهم جثمان أميرهم الشجاع.

انسحب المسلمون فى صمتٍ وهدوء وانتظام أثناء الليل.. وتحت جنح الظلام..

فى الصباح فوجئ الفرنجة بأن المسلمين ليسوا أمامهم، لم يحاول شارل مارتل أن يلاحقهم خوفًا من أن يكون ذلك مكيدةً وخطة مدبَّرة ومدروسة..

لم يلجأ شارل مارتل إلى مطاردة المسلمين كما يحصل عادة لدى مطاردة كل مهزوم أو خاسر لأن المسلمين لم يهزموا فى هذه المعركة ولم يخسروا...

إن معركة بلاط الشهداء أبعد مكانٍ وصل إليه العرب المسلمون فى فتوحاتهم فى الغرب..

تعتبر بلاط الشهداء أو معركة تور من المعارك الفاصلة فى التاريخ.. فلو أتيح للمسلمين الانتصار فى هذه المعركة لدانت كل أوربا بالإسلام. كما نبَّهت هذه المعركة الأوربيين إلى تعاظم قوة العرب ونفوذ المسلمين فى إسبانيا..

بعـد معـركة بلاط الشـهداء أعـاد شـارل مارتل الإغـارة على العرب عـدة مرات..

لقد خـمدت نيران الدعوة الإسـلامية بعد مـعركة بلاط الشهـداء، وأصبح الدافع المادى وراء التـوسع وضاع الدافع الروحـى الذى عرفناه فى نفـوس كل من عقبة بن نافع..

موسى بن نصير.. وطارق بن زياد..

وعبد الرحمن الغافقى بطل الشهداء..

موقعة مرج دابق.. والعثمانيون

الموقعة التى منها دخل العثمـانيون إلى البلاد السورية والمصرية، وإلى العراق والجزيرة العربية. . .

من مرج دابق أحكم العثمـانيون قبضتهم على الشعوب العـربية والإسلامية لمدة زادت على 400 سنة. .

مرج دابق، المعركة الحاسمة فى تاريخ العرب والإسلام، بعدها دخل العرب فى عصور من البؤس والتخلف والظلم، بينما انتقل العالم من تقدمٍ إلى تقدم. . .

لماذا كـان ذلك؟؟ ولماذا وقــعت تلك المعـركـة؟ وقـبـل كلٍّ شيء من هم العثمانيون؟

قبل الحديث عن معركة مرج دابق، تلك المعركة الفاصلة فى تاريخ المسلمين الحديث، لا بدَّ من التـعرف بإيجاز إلى العثـمانيين، الذين استطاعوا أن يـؤسِّسوا امبراطورية واسعــة الأرجاء، مهابة الجانب، هزَّت عروش العالم فى حـينه وخافها الملوك والحكّام. . الأتراك العثمانيون!!!

هم من القبائل التركية. . كـانت نشأتهم الأولى فى أواسط القارة الآسيوية، وقد ظهروا على المسرح التاريخى منذ القرن السادس للميلاد. . .

بدأوا بالهجرة من أماكن وجودهم هذه، وأعـملوا جنودًا مرتزقة فى الجيوش الإسلامـية، خـاصة زمـن الدولة الأموية ومن بعـدها الدولة العبـاسيـة،وعرفـوا باعتمادهم على الحصان كحيوان يعتنون بتربيته، فقد كانوا يشربون حليب الأفراس ويأكلون لحومها ويمتطون صهواتها فى حروبهم. .

دخل هؤلاء الأتراك فى الدين الإسلامى. . . وتكاثر عددهم زمن العباسيين وعَظُمَ نفوذهم حتى إنَّ أمَّ الخليفة العباسى المعتصم كانت تركية، وما لبث المعتصم أن كوّن فرقة عسكرية كلها من الأتراك. . ومع مرور الأيام قويت شوكتهم وتعاظم نفوذهم فاستبدُّوا بالدولة وأصبح قوَّادهم يعيِّنون الخلفاء ويعزلونهم. .

كان الأتراك مسلمين مـخلصين لإسلامهم، ولكنَّهم، وبسبب من سيـاستهم العسكرية فقـد ساهموا فى القضاء على الحـضارة الإسلامية والعـربية، وفى جعل العالم العربى يتخلَّف عن ركب الحضارة العالمية خلال أربعة قرون حيث حلَّ الفقر والجهل والفوضى. .

عندما قـوى نفوذهم، وتكاثر عـددهم خاصة فى منـطقة خراسـان، كوَّنوا لأنفسهم دولة هى الدولة السلجوقية. .

خدم الأتراك لدى الخلفاء العباسيين، وتولُّوا المناصب العالية، واعتمد عليهم العباسيـون، امتازوا بقوَّة أجسامهم وحُـسْن مظهرهم، بسطوا سلطانهم حتى على الخليفة العباسـى نفسه، وصاروا هم الحكَّام الحقيقيين، وعنـدما وجدوا فى أنفسهم القوَّة استولوا على السلطة فى المنطقة الممتدة من فارس حتى مصر مكوِّنين دويلات عديدة لها شبه استقلال وذلك ضـمن الخلافة العباسية. . ومن هذه الدويلات التى كان حكامها من أصل تركى أو ممَّن كان يوالى الأتراك:

الدولة الطولونية فى مصر

الدولة الإخشيدية فى مصر

الدولة الغزنوية فى الشرق

الدولة البورية فى دمشق

دولة السلاجقة الروم فى آسيا الصغرى.

الدولة الزنكية فى حلب ودمشق

الدولة الأيوبية فى مصر

دولة المماليك البحرية فى مصر (1250 ـ 1382م).

كان أول ظهـور سياسى وعـسكرى للأتراك فى خراسان حـيث كوَّنوا دولة سُـمِّيت بالدولة السلـجوقـية والتى دامت من عـام 1058م. لغـاية 1193م، وقد ساهمت كل هذه الدويلات فى الدفـاع عن العالم الإسلامى ضـد الخطر الصليبى

الآتى من أوربا وضـد الخطر المغـولى الآتى من الشرق الأقـصى. . كـما اسـتطاع الأتراك السـلاجقة السـيطرة على بلاد الأناضول وتحـويله إلى بلد إسـلامى، وقد عرف هؤلاء الأتراك باسم(سـلاجقة الروم) ومنهم جـاء العثمانيـون. . وكانوا أبرز هذه الدويلات التى نشأت فى ذلك الوقت، واستمرّت دولتهم لمدة تزيد على 500 عام. .

كيف ظهر الأتراك العثمانيون؟

نحن نعلم بأن المغول جاؤوا من مناطق شـاسعة شبه جرداء، تلفـحها رياح ثلجـية،وهذه المناطق هى مـا تعرف باسم منغـوليا. . بدأ المغـول بالتوسـع خارج بلادهم، يوقعون الدمار والخراب أينما حلّوا ويضغطون على جيرانهم الأتراك الذين اضطرّوا إلى الهجرة والانتقال باتجاه هضبة الأناضـول حتى استقرّ بهم المقام أخيرًا شمال غربى أرمينـية، حيث عمل زعيم هذه العشيرة واسـمه (أرْطُغْرُل) فى خدمة سلطان سـلاجقة الـروم، يساعدهـم فى حروبهم ضـد الأعداء، ولقـاء ذلك كان سلطان سلاجقـة الروم يكافئه بمنحه جزءًا من أمـلاكه الواسعة كى يعيش فـيها مع عشيرته مكونًا بذلك وطنًا له ولهم. . مات أرطغرل زعيم الأتراك. .

خلفه ابنه عثمان عام 1288م.

أخلص عـثمان للـدولة السلجوقـية وقد وصـف بأنّه كان رجـلا أقرب إلى الأسطورة منه إلى الواقع.

أغار المغول يومًا على سـلاجقة قونية، فاغتنم عثمـان ذلك وأعلن استقلاله على الدولة السلجوقية مكونًا دولة خاصة به. . مـا لبث أن سُمِّيت على اسمه هو أى (الدولة العثمانية) وكان عام 1299م.

عام 1301م اشتبك عثمان فى قتال مع اليونانيين وانتصر عليهم. . وبدأ نجمه يتصاعد. . خلفه ابنه أورخان الذى حكم 33سنة، نظّم فيها جيوشه وقوّاها وقسّمها إلى أربعة فرق لكلٍّ فرقة ميزات وخصائص، ومن هذه الفرق:

- فرقة الانكشارية، التى تكوَّنت من غلمان النصارى الذين جمعهم من كافة الأنحاء، ودرَّبهم تدريبًا عسكريًا خاصًا وقاسيًا، وخصَّهم بامتيازاتٍ كبيرة وتسمية انكشارية تعنى(القوات الجديدة).

- فرق غير نظامية، ليس لهم رواتب، إنَّما يعتمدون على السلب والنهب، وهؤلاء كانوا يثيرون الرعب والخوف فى نفوس الأعداء..

احتلَّ أورخان مدينة بروسًا القريبة من بحر مرمرة والتى تحوَّلت فيما بعد إلى مدينة العثمانيين المقدَّسة بسبب دفن عثمان فيها..

حاول الامبرطور البيزنطى فى القسطنطينية التقرب إلى أورخان واسترضائه فقدَّم له الجزية وزوَّجه من ابنته..

بعد أورخان، حكم ابنه مراد الذى وجَّه كل اهتمامه نحو شبه جزيرة البلقان واحتل مدينة أردنة وصوفيا وسالونيك.. وقد أفزعت فتوحات العثمانيين وانتصاراتهم ملوك أوربا وأمرائها إضافة إلى تدفق الأتراك إلى أوربا...

وحيث إنَّ الأتراك العثمانيين كانوا يلجأون باستمرار إلى انتزاع الأولاد المسيحيين من أسرهم ودفعهم إلى الفرقة الانكشارية، وتربيتهم تربية إسلامية، كل ذلك جعل شعوب أوربا وشعوب البلقان خاصة يتوحَّدون فيما بينهم لمحاربة الأتراك خاصة(البلغار، الصرب، البوسنة، ألبانيا). وكان سكان الصرب أكثر هذه الشعوب عداءً للأتراك ومحاربةً لهم وأشدَّهم قوةً، وكان ملكهم يُلقِّب نفسه بالامبراطور وبالقيصر..

ثم جاء إلى السلطة بايزيد الأول وحكم من (1389 إلى 1402م).

وفى عهده ظهر الزعيم المغولى(تيمورلنك) الذى كاد يقضى على الدولة العثمانية ويدمِّرها..

عمل بايزيد على توطيد حكمه، فأخضع البلغار إخضاعًا تامًا، فخاف الغرب منه، وقام بابا روما(بونيفاسيوس) التاسع داعيًا إلى شن حرب صليبية جديدة ضد العثمانيين عام 1396م. ووعد كل مسيحى يشترك فيها بمنحه صكوك غفران..

مما هيَّج مشاعر المسيحيين وتحمَّس لهذه الحملة بصورة خاصة الفرنسيون والألمان وتكوَّنت الحملة وسارت لمحاربة العثمانيين وقام أفرادها بارتكاب المجازر بحق السكان أينما حلُّوا. . وفي النهاية انتصر بايزيد عليهم. . وحاصر القسطنطينية مرَّتين ولم يستطع فتحها. . وأجبر ملك الصرب على دفع الجزية له وتزوَّج من أخته. .

في هذه الفترة، كان المغول قد تقدَّموا نحو أراضي العثمانيين، حتى التقوا بهم في سهل أنقرة عام 1402م. بزعامة تيمورلنك، ودارت معركة طاحنة بين المغول والعثمانيين، أسر فيها بايزيد ووُضع في قفص من حديد وكان عمره يقارب السبعين، وما لبث أن مات بعد أشهر، أمَّا تيمورلنك فقد توفي بعده بسنتين أي في العام 1405م، وذلك أثناء غزوه للصين. .

كادت الدولة العثمانية أن تقترب من الفناء والاضمحلال والتفكُّك بسبب ما قام من صراع بين أبناء بايزيد الأربعة. . . . وأخيراً انتصر أحد الأخوة الأربعة، واسمه محمد، على أخوته الثلاثة وأعاد الوحدة للدولة ونظَّمها وخلفه ابنه مراد الثاني. . وعاد الصراع بين العثمانيين وملوك البلقان. . توفي مراد الثاني.

حكم بعده ابنه محمد الثاني. .

الملقَّب بالفاتح. .

السلطان محمد الفاتح. . حكم من العام 1451م لغاية 1481م. وسُمِّي بالفاتح لأنه فتح مدينة القسطنطينية، ومما ساعده على فتح مدينة القسطنطينية واحتلالها بسهولة هو إعلانه لجيشه بأنَّ المدينة وما فيها هي ملك للجنود إذا احتلوها ودخلوها. . وقد تمَّ لهم ذلك. . في 29 أيار عام 1453م. حتى إيطاليا ذاتها كادت تسقط بأيدي العثمانيين الذين نزلوا أرضها لو لم يمت محمد الفاتح ويدبُّ النزاع بين أبنائه. .

يعتبر سقوط القسطنطينية حدثًا مهمًا في التاريخ لأنه بسقوطها زالت الامبراطورية البيزنطية وهاجر العلماء والفلاسفة منها إلى أوربا وخاصة إلى إيطاليا

حاملين معهم العلوم والمعرفة وبذلك ساهموا فى بعث النهضة الأوربية الحديثة.

اتخذ محمد الثانى من القسطنطينية عاصمة لدولته وحوَّل كنيستها (آيا صوفيا) إلى مسجد رئيسى.

توفى محمد الفاتح عام 1481م.

تنازع أبناؤه على السلطة فيما بينهم..

وأخيراً كانت الغلبة لبايزيد الثانى.. والذى عُرف عنه حبُّه للعلم وللعلماء وللسلام.. وما لبث أن قام نزاع بين السلطان بايزيد وبين ابنه سليم وتطور هذا النزاع إلى قتال بين الوالد وابنه انتهى بتنازل بايزيد عن العرش، ثم توفى بايزيد مسمومًا.. وأصبح سليم الأول سلطانًا على العثمانيين..

عُرف السلطان سليم بأنَّه كان رجلا حازمًا محبًا للقتال.. وقد سُمِّى باسم (ياوز سلطان) أى السلطان المخيف..

السلطان سليم الأول..!!

حكم ثمانى سنات، وسَّع حدود امبراطوريته عمَّا كانت عليه عندما اعتلى العرش..

عُرف عنه أنه كان حازمًا وقاسيًا ولم يكن يسمح لأحد بأن يعارضه فى رأى.. قتل أخويه بدون رحمة أو شفقة.. كما قتل أبناء أخيه الخمسة وهم أطفال.. كما كان محبًا للقتال وللصيد وللحرب.. مكرِّسًا كل وقته لذلك.. وزيادة على هذا كان مدمنًا للمخدرات (الأفيون).. كانت حياته متناقضة....

كان فى صدره قلب لا يعرف الرحمة.. رغم ذلك أحب العلم وكرَّم العلماء.. وأعطاهم أعلى المناصب فى الدولة.. وأظهر كل الاحترام لرجال الدين..

رجل غريب الأطوار..

خاض أعنف المعارك وأقساها.. وأهمُّها كانت مع المماليك حكام سورية

ومصــر. . وأهم هذه المعارك كانت مـعركة مـرج دابق فى شمال ســورية. . مرج دابق.

كان السلطان سليم الأول يطمع بتـوسيع دولته، إضافـةً إلى رغبته بتـوحيد البلاد الإسلامية تحت تاجه وخاصة وضع المدينتين(مكة والمدينة).

خاف المماليك من سيـاسة السلطان سليم التوسعية هذه، فـتقرَّبوا إلى الشاه إسمـاعيل الصفـوى، شاه إيران وتحالفـوا معه وذلك بغـية وقف الخطر العثـمانى المرتقب. .

عام 1516م، سار سلطان المماليك واسـمه قانصوه الغورى بجيش كـبير إلى مدينة حلب، لكى يكون عـلى استعداد للتـصدِّى للعثـمانيين إذا ما حـاولوا غزو بلاده.

عَلِمَ السلطان سليم بالجيوش التى حشـدها قانصوه الغورى عند حلب، دعا كبار الأمراء والقواد إلى اجتماع لدراسة الوضع وللتشاور فيما يجب عمله، وأخيراً قرَّروا إعلان الحرب على المماليك، ولكـن وقبل دخول الحرب أرسل إلى المماليك وفدًا ليفاوضهم ويطلب إليهـم الدخول فى طاعته، ولم ينتظر السلطان سليم عودة وفده، أو ردود سلطان المماليك، وأخذ يستعـد للحرب ويعمل لخوضها ومن أجل ذلك حشد جيـشًا كبيراً. . ماذا فعل سلطان الممـاليك قانصوه الغورى؟. . ارتكب قانصـوه الغورى غلطةً كبـيرة بإساءته استـقبال الوفـد العثمـانى، حيث أغلظ فى معاملته لهم وأهانهم. .

وكان لا بدَّ من نشوب الحرب، بين العثمانيين والمماليك. .

وكان يوم 24 آب عام 1516م. .

وكانت الحرب. .

وكان يوم مرج دابق. .

حرب طاحنة، ومعركة حاسمة جرت فى سهل مرج دابق. .

حيث تقرَّر مصير سورية ومصر، بل مصير البلاد العربية الآسيوية كافة. .

انتصر فى هذه المعركة العثمانيون ويعود ذلك إلى عدة عوامل منها:

ـ وقوع الشقاق والنزاع داخل جيش المماليك.

ـ تخلى أمراء لبنان عن مساعدة المماليك.

ـ استعمال العثمانيين لسلاح المدفعية. . بينما اعتمد المماليك على سلاح الفروسية. .

ـ خيانة بعض ولاة المماليك وانضمامهم إلى صفوف العثمانيين.

هذه العوامل ساعدت العثمانيين على إحراز الانتصار وكسب المعركة، قتل قانصوه الغورى أثناء المعركة فيما كان يحاول الفرار، وانتخب المماليك بدلا منه(طومان باى) خلفًا له. .

تقدَّم السلطان سليم الأول واحتل حلب ودمشق والقدس، كما دانت له سورية كلها. .

حاول السلطان سليم أن ينال اعتراف المماليك فى مصر بسيادته وسلطانه، ولكن طومان باى رفض ذلك، فما كان من سليم الأول إلاَّ أن صمَّم على مواصلة الزحف وقتاله ثانية. وأخذ يستعد لذلك ويحشد الجيوش لغزو مصر، ومن أجل ذلك أحضر آلاف الجمال وحمَّلها بالماء كى يشرب منها الجيش أثناء اجتيازهم الصحراء إلى مصر. .

وصل العثمانيون إلى قرية الريدانيَّة الواقعة على الطريق المؤدى إلى القاهرة حيث كان المماليك بالانتظار، ودرات معركة، انتصر فيها العثمانيون على المماليك وكان ذلك فى 22 كانون الثانى من العام 1517م، رغم كل ما أبداه فرسان المماليك من بطوله وتضحية فى هذه المعركة. . وكاد يُقتل سليم الأول فى هذه المعركة ولكنه نجا بأعجوبة، وللمرة الثانية حقق العثمانيون الانتصار على المماليك وكان للأسباب ذاتها، حيث إن استعمال سلاح المدفعية الذى كان بحوزة العثمانيين رجَّح كفة الانتصار لهم. واضطر السلطان المملوكى طومان باى ومن كان معه من

المقـاتلين إلى الهرب باتجـاه الجنوب تاركين فى سـاحة الريدانـية أكثـر من 25ألف قتيل. .

دخل السلطان سليم العثمانى إلى مدينة القاهرة ودار صراع وقتال فى شوارع القاهرة بين الجيـشين العثمـانى والمملوكى، ولم ينته القتال إلا بعـدما لجأ السلطان سليم إلى الخديعة والإيقـاع بالمماليك حيث أعلن عفوه عن كل مقـاتل يسلّم نفسه ويتوقف عن القتال. . وهكذا استسلم له أكثر من 800 مقاتل مملوكى، ما لبث أن عاد وقتلهم جميعهم. . وبعد ذلك أعمل السيف برقاب سكان القاهرة وقضى على أكثر من خمسين ألف إنسان من السكان البائسين. . وشنق طومان باى. .

وبعد أن استتبّ الوضع للعثمانيين ودانت مصر للسلطان سليم الأول، حضر إلى القاهرة شـريف مكة وقدّم للسلطان سليم مفـاتيح الحرمين الشـريفين معتـرفًا بذلك بسيادة العثمانيين على الأراضى المقدسة. .

أعلن السلطان سليم نفسه خليفة على المسلمين وأخذ ينظّم الإدارة فى البلاد التى احتلها. . ودخلت البلاد العربيـة فى ظل الحكم العثمانى لمدة زادت على 400 سنة، وكان معظم السلاطين العثمانيين سيِّئى الإدارة والحكم لا يهمهم سوى اللهو والعبث، كـما زاد نفوذ النسـاء والحاشيـة الذين سيطروا على مرافق الدولة، كـما تفـشّت المؤامـرات والدسـائس ووصل الـفـساد إلـى الجـيش وإلى الولاة والحكام وانتـشرت روح التـمرُّد بين الجنود، وفـسـد النظام المالى، إضافـة إلى نمو الروح القوميـة فى أنحاء الامبرطورية. . كل ذلك ساهم فى بؤس وشـقاء وتخلف البلاد العربية التى حكمتها الدولة العثمانية بعد معركة مرج دابق. .

معركة الكفاح ضد الطليان

معركة وبطل و 20 سنة من الكفاح ضد الطليان

مقدمة:

منذ مطلع القرن السادس عشر أى بدءًا من العام 1516م خضعت البلاد العربية لسلطة الأتراك العثمانيين باستثناء بلاد المغرب ونجد، وكان هذا الخضوع للأتراك من أبشع ما ابتليت به البلاد العربية من احتلال وما مرّت به خلال هذا الوقت الطويل الذى استمرّ ما يزيد على 400 عام من ركود وتخلُّف فى الوقت الذى كانت فيه شعوب العالم كافّة وأوربا خاصة تنتقل من تقدُّم فى ميادين التجارة والصناعة والعلوم الفكرية.

ومع بداية القرن العشرين كانت الدول الأوربية قد وجدت لنفسها مناطق نفوذ وتوسُّع فى أماكن خارج حدودها وفتحت بذلك أسواقًا جديدة لتصريف إنتاجها الصناعى، فى حين كان العرب فى عالم آخر حيث نظر الأوربيون إليهم إليهم وإلى حكامهم العثمانيين نظرة واحدة وخلطوا بين ما هو عربى وما هو تركى حتى كادت فكرة عرب وعروبة تختفى من أذهان الأوربيين حيث كان بين العرب وبين بقية العالم ما يشبه الستار والعزلة.

الغرب يكسر العزلة ويخترق هذا الستار

لماذا. . . ؟

لأن الأوربيين كانوا بحاجة إلى المواد الخام الأوّلية اللازمة لمصانعهم، وبحاجة إلى الأسواق التى يبيعون فيها ما تنتجه هذه المصانع. . ولتحقيق ذلك لجأ الأوربيون إلى عقد الاتفاقيات التجارية والمعاهدات تحت عنوان الصداقة والتعاون. .

ليس هذا فقط. . إنّما أرسلوا البعثات التبشيرية التى سمّمت أفكار الناس

وزرعت الفتن الطائفية فى كافَّة أنحاء الوطن العربى كما أنشأوا البنوك التى عملت على نهب المواطنين بكافة الوسائل. .

بدأت الفتن والثورات تفتِّت الدولة العثمانية حتى تحوَّلت هذه الدولة إلى ما يشبه الرجل المريض وتسابقت دول أوربا لتتقاسم تركته فيما بينها. . كل دولة تسعى للاستيلاء على جزء من ممتلكاته، فبريطانيا أطلقت يدها فى مصر والعراق وقبرص، حيث احتلت مصر عام 1882م. . . وفرنسا أطلقت يدها فى شمال أفريقيا وبلاد الشام فاستولت على الجزائر عام 1830م، وعلى تونس عام 1881م وكثيراً ما ادَّعى الفرنسيون أنَّ البحر المتوسط إنَّما هو بحيرة فرنسية. . وروسيا بدأت تتطلع إلى منطقة البلقان. . .

فى هذه الحقبة التاريخية كانت إيطاليا قد توصَّلت إلى توحيد دويلاتها بعد كفاحٍ دموى ومرير كلَّفها الكثير وأخذت مكانها إلى جانب الدول الأوربية، متطلِّعة إلى النفوذ والسيطرة واحتلال أراضى الغير، وتطلَّعت إلى ليبيا. .

لماذا ليبيا بالذات؟؟

لأنَّ ليبيا كانت تعانى ـ شأنها شأن بقية الدول العربية الرازحة تحت النفوذ التركى ـ من الإهمال لكافة مرافق الحياة. ففيها الجهل والأوبئة والفقر، بسبب الضرائب الباهظة التى كان يفرضها العثمانيون على طبقة العمَّال والفلاحين. .

أخذت إيطاليا تعمل على تطبيق سياسة التغلغل السلمى وكانت السفن الإيطالية تمرٌّ بالموانئ الليبية بصورةٍ منظَّمة، ومن ثمَّ عملت إيطاليا على إنشاء المؤسسات التبشيرية حيث اتخذت الأطماع الإيطالية فى البدء وجهًا ثقافيًا وصحيًا واقتصاديًا بتأسيس المدارس والمستشفيات، ففى عام 1910م. أرسلت إيطاليا بعثة علمية للتنقيب عن الآثار، حيث انهمكت هذه البعثة وتوغلت فى الداخل الليبى حتى منطقة الخمس بإعداد الخرائط الضرورية للتحركات العسكريَّة المحتملة فى المستقبل. . .

هذا إضافة إلى إنشاء البنوك مثل بنك دى روما الذى توصَّل إلى السيطرة

على تجارة البلاد الداخلية والخارجية، وهذه كلها عوامل تمهيدية لما سيليها من أعمال عسكرية. .

وبدأت إيطاليا تبحث عن المبرِّر للتدخل تجاه الرأى العام العالمى فأرسلت إلى الحاكم العثمانى فى ليبيا تهدِّده وتنذره بسبب إهماله لليبيا. .

يا لها من حجَّة. . . !!

ويا لها من غيرة على الليبيين !!

ويا لها من مبرر للتدخل. .

ولم تكن إيطاليا وحدها ترغب بليبيا بل كانت جهات أخرى ترغب فيها، ففى عام 1908م، أرسلت المنظمة اليهودية إلى برقة لجنة لدراسة مشروع تأسيس وطن قومى لليهود فى منطقة الجبل الأخضر فى ليبيا تحت حماية الدولة العثمانية ثم عاد وصُرف النظر عن هذا المشروع.

قامت الصحف الإيطالية بحملة إعلامية على ليبيا مدعيةً بأنَّ أرواح الإيطاليين فيها معرَّضة للخطر وأموالهم لم تعد فى أمان. . وكانت تُعَدُّ خطة للاحتلال. .

أرسلت إيطاليا إنذاراً فى 27 أيلول عام 1911م. وبعد مضى 24 ساعة من توجيه الإنذار كانت السفن الإيطالية تحاصر طرابلس الغرب وفى 29 أيلول 1911م. كان الغزو الإيطالى للأراضى الليبية، سقطت طرابلس الغرب. .

قُدِّر عدد الجنود الإيطاليين الذين اشتركوا بعملية الغزو بأربعين ألف مقاتل، ثم سقطت دَرْنَة وبنغازى وطبرق، ولم ينته شهر تشرين الأول إلا وكانت جميع السواحل الليبية بيد إيطاليا. .

كان الإنذار مجرَّد تغطية أو مبرِّر حضارى يخفى وراءه نوايا بربرية شرسة وقد ارتكب الطليان عدة مجازر بحقِّ السكان منها مجزرة المنشية شرقى طرابلس الغرب فى 23 تشرين أول 1911 التى ذهب ضحيتها6 آلاف طفل وامرأة وشيخ. .

قرَّرت إيطاليـا الاحتلال وهيَّـأت له كل العوامل الداخليـة والخارجيـة حيث كانت الأحـوال الاقتصـادية فى ليبـيا سيـئة وكان الناس يـتذمَّرون من الاحـتلال العثمانى. .

خطَّطت إيطاليا لكلِّ شىء ورتَّبت كل شىء ولكنَّها نسـيت شيئًا واحدًا وهو الأهم. . ألا هو الشعب الليبى نفـسه. . نسيت إيطاليا أنَّ هناك شعـبًا تعلَّم الحرَّية فى حضن الصحراء الشاسعـة، وبأن هذا الشعب لن يسكت ولن يقبل بأن يستبدل محتل تركى بآخر إيطالى. . بل سيقاوم مهما كان الثمن. .

كان الشـعب الإيطالى مأخوذًا بأحـلام الفتح والتوسع الذى سـيُعيـد لروما مجدها القديم. .

كانت ردَّة الفـعل الوطنية الليبـية سريعة ضـد إيطاليا حيث تداعى الزعـماء الليبيون لعقد مؤتمر وطنى فى مدينة الخمس لتنبـيه الشعب الليبى ممَّا يخبئه المستقبل ودعاهم إلى عدم التـعامل مع البنوك الإيطالية، وحمل السلاح ومـقاطعة المدارس الإيطالية. . .

كان المفروض أن تدافع الدولة العثـمانية عن ليبيا، لكنَّهـا تراجعت وسحبت جيشـها باستثناء قوة صـغيرة(خمســة آلاف جندى) كما عقدت صـلحًا مع إيطاليا وبموجب هذا الصلح تركت ليبيـا وحدها تواجه مصيـرها بدون عتاد. . وبلا جنود مدرَّبين، وبلا أموال. .

لم تتغـيَّر لهجـة المستعمـر فرنسيًـا كان أم إنكليزيًا أم إيطاليًـا، وزَّع الطليان منشورات باللغـة العربيـة فى بداية العام 1912م. تؤكّد رغـبة إيطاليـا الحسنة فى التعامل مع المواطنين. وممًّا جاء فى هذه المنشورات:

«. . . أمـا تهمكم الصلوات فى الجـوامع والراحـة، أنتم وعائلاتكم، أمـا يهمكم رعى مـواشيكم وتعاطى تجـارتكم آمنين. . .؟ اعلموا أنَّ إيطاليا أصـبحت لكم بمقام الوالد بعد أن أخذت أمكم وهى طرابلس. .

اعلموا أنَّ كل من يأتى إلينا ببارودته مع المهمَّات نحسن إليه بعشرين فرنكًا مع كيس قمح أو شعير كيفما شاء...».

وجاء فى منشور آخر ما يلى:

«...... جاء فى القرآن الكريم أنَّ الجار خيرٌ من الغريب.. ولمَّا كانت إيطاليا أقرب إلى طرابلس الغرب من تركيا، فالواجب على العرب إذن إن يفضلوا حكم الإيطاليين على الأتراك... ولما كان سبحانه وتعالى قد وضع طرابلس الغرب فى قبضة الطليان فقد أصبح واجب كل مؤمن صادق الخضوع لسلطاتهم، لأنَّ حكومة روما بمثابة الأم الرؤوم التى ترغب فقط أن تعلِّم العرب كيف ينشِّئون أولادهم ويربونهم وكيف يصبحون أثرياء بفضل المخترعات الجديدة فى الصناعة والتى سوف يأتى الإيطاليون بها إلى ليبيا...».

لعلَّ هذه المنشورات واضحة النفاق والخداع والاستهزاء والاستخفاف والاحتقار للسكان العرب فى ليبيا وتصويرهم كبدو فى منتهى التخلُّف والأميَّة...

هنا ظهر عُمر المختار على مسرح الأحداث تاركًا زاويته الدينية... من هو عمر المختار؟

إنه من قرية الدفنة بإقليم برقة، وُلد عام 1862م. من أسرة كبيرة فى قبيلة المنفة، عاش بين أبوين عملا كل ما بوسعهما كى ينشأ ابنهما متمسكًا بأصول دينه وقيم البادية وعادات القبيلة الأصيلة، تدرَّب على الفروسية وتلقَّى دراسة إسلامية بحتة...

عندما بلغ عمر مرحلة الشباب وأنهى دراسته لفت أنظار زعيم السنوسية بما كان يتحلَّى به من رجاحة عقل وفصاحة لسان وعواطف دافقة، فقرَّبه إليه المهدى وشمله برعايته ووضعه فى المكان المناسب حيث عيَّنه شيخًا لزاوية القصور عاملا ومرشدًا دينيًا.

عَمل عُمر المختار على وعظ الناس وتعليمهم أصول الدين، ليس هذا

فحسب إنَّما اختلط بالناس وعاش حياتهم وعرف طباعهم ومكامن الضعف والقوة فيها..

ترك عمر المختار كل ذلك ليقود حركة المقاومة والجهاد ضد الطليان.. ويضرب مثالاً رائعًا للجهاد في سبيل الله والوطن والذى سيستمر سنوات طويلة.

بدأت المقاومة بشكل عفوى وبدون تنظيم أوَّل الأمر وكان سلاح المقاومين مجرَّد بنادق فردية ولكنَّه كان سلاحًا مدعومًا بالإيمان وبعدالة النضال والقضية.

ظهر عمر بطلاً يبدِّد ليل اليأس، جمع الرجال تحت رايته ووحَّدهم ونظَّم صفوفهم من أجل المقاومة، وكان عمر يعرف أنَّ عدوَّه أقوى منه بكثير.. بل يفوته مئات المرَّات، ولذلك كان يتجنَّب لقاء العدو وجهًا لوجه..

عمر المختار، أحد أكبر المجاهدين وأكثرهم تفانيًا، اتخذ من الجبل الأخضر مركزًا لمقاومة وحصر مطالبه فى كلمة واحدة وهى ـــ الحريَّة ـــ تحت قيادته توحَّدت القبائل متناسين خلافاتهم وصراعاتهم..

ماذا فعل الطليان للقضاء على المجاهدين؟ لجأوا إلى شقِّ الطرق بالجبل الأخضر لتسهيل تتبع المقاومين والتمهيد لاستيطان الجبل الأخضر من قبل الإيطاليين..

غير أنَّ واحة الجغبوب كانت منطقة الانطلاق للرجال وللمؤن والإمدادات التى تصلها من مصر والتى كانت بدورها ترزح تحت نير الاحتلال الإنجليزى كما رأينا..

عمل الثوَّار على شنِّ حرب عصابات ضد الطليان وساعدت طبيعة الجبل الأخضر على ذلك ممَّا يُسهِّل عملية الكرِّ والفرِّ، وسجَّلوا بطولات خالدة فى جميع أنحاء الجبل الأخضر..

أنهكت حرب العصابات هذا العدو وأتلفت أعصابه حيث فوجئ الإيطاليون بمقاومة الليبيين لهم دون أن يحسبوا حسابًا لذلك، إنَّما اعتقدوا أنَّ الاحتلال سوف يستغرق بضعة ساعات وينتهى كلُّ شىء ومن أجل ذلك لجأ العدو الإيطالى إلى

الضرب بقوةٍ وشراسة، فقتلوا الأسرى وهتكوا الأعراض وحرمات الدين وداسوا القرآن الكريم بأقدامهم أمام المواطنين وهدموا أضرحة الأولياء وجعلوها اسطبلات لحيواناتهم وأغلقوا المدارس، واستعملوا الطائرات لقصف منازل السكان، ولاحقت جيوشهم المسلحة الأطفال فى الشوارع، ونهبوا كل ما يصادفهم دون تمييز أو رحمة..

لم يهدأ الثوَّار، ولم يتراجع عُمر المختار.. ومن أجل أن يقضى الإيطاليون على الثورة وعلى المقاومة لجأوا إلى أساليب عديدة وقاسية منها:

- عزل المقاومة عن كل المصادر التى تمدُّهم بالقوَّة وبدأوا بواحة جغبوب..

- لجأوا إلى ترحيل السكان الذين كانوا يسكنون منطقة الجبل الأخضر إلى مكان ضيِّق وقاحل، قليل الماء وقليل المرعى حيث حشروا أكثر من ثمانين ألف إنسان فى هذا المكان الكئيب ممَّا عرَّض غالبية السكان إلى المرض والجوع، ولم ينج منهم سوى 15 ألفًا والباقى ماتوا عطشًا وجوعًا ومرضًا..

هذه كانت أكبر ضربة تلقَّاها المجاهدون لأنَّهم كانوا يعتمدون على القبائل يمدُّونهم بالماء والزاد والرجال وبكلِّ ما يحتاجون إليه..

بعد أن خلا الجبل الأخضر من سكانه لجأ الإيطاليون إلى ملاحقة الثوار وأرغموهم على الزحف نحو الصحراء المكشوفة..

ثم احتلَّ الإيطاليون واحة الكفرة الرابضة فى قلب الصحراء وكانت آخر معاقل المجاهدين وباحتلالها لم يبق أمام الليبيين من منفذ يتصلون منه بالعالم الخارجى، فكان ذلك ضربة قاضية للنضال.. وإلى عزل عمر المختار عن مصادر أسلحته ومؤونته..

كل ذلك كان باسم الحضارة..!!

ويومًا كتب مراسل إحدى الصحف الباريسية عن مشاهداته فى ليبيا ما يلى:

«... ما رأيناه فى ليبيا لم يخطر على بال أحد، مشاهد من القتل العام، أكوام من جثث الأطفال والشيوخ.. مَرَرْتُ بنحو 100 جثَّة بجانب الحائط، ولم

أكـد أفرٌ من هذا المنظر الرهيب حـتى رأيتُ طفلةً عـربية قـد أدخلت رأسهـا فى صندوق حتى لا ترى ما حلَّ بأهلها، إنَّ الطليان قد أهانونا نحن الأوربيين وشوَّهوا اسم النصرانية أمام المسلمين. . .».

هذا بعض ما كـتبـه مراسل فرنسـى فى حينه. . ومرةً ذهب بعـض المشايخ الليبيين إلى قائد الحمـلة الإيطالية يرجونه أن يصدر الأوامر إلى جنوده بالكفِّ عن هذه الاعتداءات، فكان ردهُ الوحيد هو قتلهم جميعًا رميًا بالرصاص.

إيطاليا تخوض المعارك، معارك الاحتـلال لليبيا بكلِّ ثقلها. . رصدت معظم ميزانيتها لذلك وكانت تأتى بالمزيد من جنودها فى الوقت الذى بدأ فيه عمر المختار يفقد المصادر التى كانت تساعده على الصمود، وبدأ رجاله يتضاءلون بعد أن سقط معظمهم فى ساحة الشرف شهداء. . وبدأت النهاية تقترب. .

يومًا كان عمر المختار على رأس سرية من خمسين مجاهدًا فى 12أيلول عام 1931م. يحاولون استكشاف مـواقع العدو. . فوجئوا بجيش العدو، اسـتدار عمر المختار بسرعة علَّه يجد مخرجًا. . لكنَّ الكمين الإيطالى كان قد أحكم جيدًا وسدَّ عليه مداخل الوادى الذى كانوا يعبـرونه، جرح حصان المجاهد فوقع على الأرض ورآه أحـد الجنودِ فـعـرفـه وقبـض عليـه ونقل إلى بنغـازى ومنهـا إلى السـجن للمحاكمـة. . ولم تفد تلك المقاومة المحدودة التى بذلهاعُـمر المختار، بل لم تكن متكافئة. .

وقع عُمر المختـار فى قبضة جلاَّديه. . وهلَّلت إيطاليا لذلك واعـتبرته نصرًا لها. .

فى طرابلس الغرب اتفق الإيطاليون فـيما بينهم على إجراء محاكـمة خاطفة لعمر المخـتار. . وكانت تلك لحظة من الحظات التى لن تغفلهـا أبدًا ذاكرة التاريخ مهما توالت الأحداث ومرَّ الزمن. . .

كان منظر عـمر المختـار مثيـرًا للدهشة وهو يدخل قـاعة المحكمة، وعُـمره يقارب الثـمانين، جلس عمـر مثخنًا بجـراحه أمام جـلاَّديه وسمع قائد الجـيوش

الإيطالية فى ليبيا يقول له:

ـ لماذا حاربتنا كل هذه الفترة؟ هل تصورت أنكم بعددكم القليل هذا وسلاحكم الهش قادرون على طردنا؟

أجاب عمر المختار بهدوء الرجل العاقل:

ـ لا.. لكن دينى فرض علىَّ الجهاد مهما كان السلاح هشًا والعدد قليلا..

كان عمر فى جلسته وقورًا وكأنَّ هالة من نور تحيط به، وضَّاء الجبين..

لهذا الإنسان كَتَب فيما بعد القائد الإيطالى فى مذكُراته ما يلى:

«... ارتعش قلبى لجلال الموقف، أنا الذى خضتُ معارك الحروب العالمية والصحراوية، ولُقِّبت بأسد الصحراء، كانت شفتاى ترتعشان، ولم أقو على النطق بكلمة واحدة وخرج من مكتبى وأنا أنظر إليه بكل إعجاب وتقدير...».

أجل، أسد الصحراء الطليق، قائد الجيوش الإيطالية يرتجف إجلالا لأسيره المكبَّل فى الأصفاد.. الجريح، الأعزل، فيالها من بطولة، ويالها من عظمة...

عُقدت محاكمة سريعة لعمر المختار ووُجِّهت إليه تهمة الاعتداء على سلامة الدولة وأمن البلاد وقطع الطرق.

حَمَدَ الله على ما وهبه من الشجاعة والقوَّة والتصميم..

صدر فى حقِّه حكم الإعدام.. ضحك عُمر قائلا:

ـ الحكم، حكم الله وليس حكمكم المزيَّف، إنَّا إليه راجعون.

صعدت الروح إلى بارئها.. أمام 20 ألفًا من المواطنين الذين أحضروا لمشاهدة إعدام البطل وسماع آخر كلمات نطق بها ألا وهى: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

كان عمر.. رغم النهاية الفاجعة.. رمزًا للبطولة.. كان شهيد الحرية..

بل هو الحرية.. والشرف.. والفداء..

الفهرس

الصفحة

هذا الكتاب

لقد شُرع الجهاد في الإسلام لنشر دين الله ، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

وكم خسر العالم بانحطاط المسلمين ، وبعدهم عن دينهم ، وتركهم للجهاد في سبيل الله ، لقد خسر العالم القيادة الربانية ، والقدوة الرشيدة ، والأمة القائمة على نشر العدل والقيم والأخلاق .

لذا فإننا في هذا الكتاب نذكر المسلمين بالماضي العظيم لأمة الإسلام ؛ حتى لا يصيبنا اليأس من واقع الأمة الأليم ، وحتى يحدونا الأمل في قيامها من جديد.

ونتناول في هذا الكتاب :

- غزوات الرسول .
- معركة اليرموك .
- معركة القادسية .
- معركة حطين .
- معركة عين جالوت .
- معركة بلاط الشهداء .
- موقعة مرج دابق .
- معركة الك[illegible]د ضد الطليان .



I.S.B.N. 977-350-098-7